محمد نبي الإسلام

هربرت هايز

Mohammed, The Prophet of Islam

Herbert Edward Elton Hayes

الرد على افتراءات المستشرق هربرت هايز

ترجمة وتأليف

محمد أحمد كريم

نبذة عن المؤلف

وُلِد الكاتب والمبشر البريطاني هربرت إدوارد إلتون هايز (Herbert Edward Elton Hayes) في 31 أكتوبر 1882، وتوفي في 13 أكتوبر 1960 عن عمر يناهز 77 عاماً.

- **1882:** وُلِد في منطقة **جرينهايث** بمقاطعة كنت في إنجلترا.
- **1910:** انضم إلى "إرسالية مصر العامة" في القاهرة كمبشر، وعمل أيضاً كمراقب للمخابرات العسكرية البريطانية.
- **1914:** نشر كتابه "**محمد نبي الإسلام** (Mohammed, The Prophet of Islam)" في إنجلترا.
- **1920:** رُسِم قسيساً في كنيسة إنجلترا وعاد إلى مصر ليتولى إدارة كنيسة ومدرسة في منطقة "منوف."
- **1924:** انتقل إلى أستراليا واستقر هناك حتى وفاته.
- **1960:** توفي في منطقة "فيرفيلد" بمدينة ملبورن الأسترالية.

يُذكر أن هايز عُرف في أواخر حياته بآرائه المثيرة للجدل، حتى إنه وُصِف في بعض الصحف الأسترالية بـ "الهرطوقي (heretic)" بسبب معارضته لبعض المعتقدات الكنسية التقليدية.

الإصدار الأول 2026

للمراسلة والملاحظات

kreammohammed48@gmail.com

الواتس / التلغرام

0905312670161

يستعرض هذا العمل نموذجاً من الكتابات الاستشراقية التي غلب عليها التحامل، وسعت بأساليب شتى إلى تقديم صورة مغلوطة عن نبي الإسلام محمد ﷺ وعن جوهر الرسالة الإسلامية، منطلقة من رؤية استعلائية تفتقر إلى الدقة والموضوعية، وقد جاء ردُّنا الموجز والمبسط على ما أثاره الكتاب من شبهات وافتراءات ليكون بمثابة مدخلٍ نقدي يكشف طبيعة الفكر الاستشراقي ومدى جنايته على الحقيقة التاريخية، وضماناً لوصول الرؤية الصحيحة، ونشر العلم الصحيح، نعتزم بإذن الله ترجمة هذا الرد إلى لغات عدة؛ لتمكين الباحثين والمهتمين حول العالم من استقاء المعلومة الصحيحة عن دين الإسلام من مصادرها الأصلية.

محمد أحمد كريم

المقدمة

تكمن أهمية السيرة النبوية في حياة المسلمين، من خلال تداخلها مع الواقع العقدي للمسلم، والمستشرقون تعاملوا مع السيرة النبوية كحادثة تاريخية صرفة، يمكن أن يطبق عليها الأساليب النقدية، أو المناهج البشرية التي تخضعها للتحليل وتجعل منها مختبراً للأبحاث النقدية، فقادهم بحثهم إلى العديد من **الأخطاء أهمها**: صعوبة فهم السيرة النبوية، لأنها أوسع وأكبر من المناهج الغربية يصعب إخضاعها لأساليب النقد والتحليل المحدودة، وفتح باب كبير لأعداء الإسلام من التشكيك، وزعزعة الثقة بمنطلقات الإسلام الأساسية.

وعانت الدراسات الغربية حول السيرة النبوية من هيمنة المنظور الديني الأيديولوجي الضيق، الذي استبدل المنهج العلمي التاريخي بمواقف انفعالية عاطفية وروايات تفتقر إلى التوثيق الموضوعي، وقد أدى هذا التراكم من التصورات المشوهة، سواء لدى رجال الدين أو المفكرين العلمانيين، إلى بناء جدار عازل حال بين القارئ الغربي وبين الفهم الحقيقي لشخصية نبي الإسلام ﷺ".

والقس **هربرت هايز** من أصحاب المنظور الديني الأيديولوجي، ومن أنصار هذا الإرث المثقل بالعداء، حيث حاول إسقاط معايير لاهوتية مسيحية على سياق إسلامي مختلف تماماً.. ومقالته عن النبي محمد ﷺ تكشف عن تلك النظرة التقليدية الأيديولوجية، التي لا تزال ترى الإسلام من خلال عدسات دينة لاهوتية مسبقة، وهو ما سنقوم بتفكيكه في هذا البحث.

فالمستشرق أو (المبشر) (رجل الدين) القس **هربرت هايز** يقرأ السيرة النبوية كـ "نص سياسي" نفعي، متجاهلاً العمق الروحي والتشريعي الذي جعل من هذا النظام "ثورة أخلاقية" غيرت وجه التاريخ.

وفي هذه الصفحات سنتطلع على صورة النبي ﷺ في المنظور الكنسي، الذي ساد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وسنلاحظ أن الكاتب يجنح وبشكل دائم إلى **التعميم المختزل** فهو يفترض أن كل ما هو "خارق" **(معجزات)**، هو بالضرورة "اختراع متأخر" أي من تلفيق البشر، فالرسول محمد ﷺ على رأي **هربرت** عاش حياة عادية، وبعد وفاته بعشرات السنين أو مئات السنين، قام أتباعه باختراع القصص الخارقة ونسبوها إليه، وكأنها قصص خيالية نُسجت في المساجد أو الحلقات بدون ضوابط، وبالمقابل يغفل عن المنهج الإسلامي في نقد الرجال والتأكد من الروايات، الذي حافظ على الحقائق التاريخية كما وقعت وميز صحيحها من ضعفيها، فالحقيقة الأكاديمية تقول إن المسلمين أسسوا ما يمكن تسميته بـ **"المختبر العلمي لنقد الرواية"** خضعت أقوال الرسول ﷺ وأحاديثه لميزان النقد الصارم مرت به كل كلمة نُسبت للنبي ﷺ:

1. اتصال السند: يجب أن يكون كل راوٍ قد التقى بمن قبله وجهاً لوجه.
2. عدالة الرواة: أي كذبة واحدة في حياة الراوي (حتى لو لم تكن في الدين) تُسقط روايته للأبد.
3. ضبط الراوي: اختبار ذاكرة الراوي بمقارنة مروياته بمرويات الآخرين.

وللأسف الكاتب ينطلق من "رؤية لاهوتية مسيحية" تريد إثبات تفوق أنبياء العهد القديم، عبر الحط من شأن النبي محمد ﷺ، مستخدماً "أدوات علمية" (التاريخ والحديث) بشكل انتقائي ومتحيز.

المحتويات

Inhalt

تصدير

يَبثُّ مَن يُسمَّون بـ "المبشرين المسلمين" عبر الصحافة رؤىً مثالية ومجافية للحقيقة حول ديانة محمد وشخصيته، الأمر الذي يستوجب منا توخي الحذر تجاه ما يُطرح.

وقد ذكر مؤرخون محايدون أن هناك الكثير مما يستحق الشجب في حياة نبي الإسلام، ومن المؤكد أن تعاليمه قد زادت **من تدهور الأمم** التي وقعت تحت تأثيرها.

تدعي معظم المؤلفات التي يوزعها "المبشرون المسلمون" في إنجلترا أن **النساء المسلمات أفضل حالاً** من أخواتهن المسيحيات فيما يتعلق **بحقوق الملكية**. ورغم صحة ذلك، فإنه لا يخلصهن من إذلال **تعدد الزوجات** والمحظيات، مع نظام طلاق متقلب، يجعلهن ضحايا لانحطاط أنانية أزواجهن وأسيادهن، وهو ما أقره محمد نفسه.

نأمل أن يساعد المقال التالي في مواجهة الأفكار الخاطئة التي يتم نشرها في الخارج، وأن يدفع القراء إلى دراسة أعمق لمشاكل ومآسي الملايين من **الرعايا المسلمين التابعين لـ "ملكنا المبجل"**.

نطلب صلوات جميع المسيحيين من أجل هؤلاء الملايين، ومن أجل أولئك الذين يعملون جاهدين لتبشيرهم **بـ"غنى المسيح الذي لا يُستقصى"**.

هـ.إي.إي. هايز.

جرينهايث[1]

[1] هي قرية تقع في مقاطعة كنت (Kent) في إنجلترا، وتقع على الضفة الجنوبية لنهر التايمز، وهي مكان مولد الكاتب.

الرد

نلاحظ أن الكاتب يتحدث من منطلق استعلائي "فوقي" مرتبط بظلال الإمبراطورية البريطانية، فعندما يتحدث عن الملايين من "الرعايا المسلمين للملك"**،** فهو لا يناقش ديناً فحسب، بل يناقش من مواقع وأسباب السيطرة والقوة، ويعكس رغبة في تطويع الهوية الدينية لخدمة التبعية السياسية للدولة العظمى، أما قوله "غنى المسيح الذي لا يُستقصى" فهذا الوصف يبدو كغطاء أخلاقي للتوسع الاستعماري الإنكليزي الذي كان يرافق هذه البعثات.

ويدعي أن تعاليم الإسلام زادت من **تدهور الأمم،** هذا الادعاء يتجاهل الحقائق التاريخية الموثقة حتى في المراجع الغربية المنصفة مثل جورج سارتون في *تاريخ العلوم*، يقول: الإسلام نقل قبائل العرب من التشتت والوأد إلى بناء حضارة علّمت أوروبا الطب والفلك والجبر، والتدهور الذي شهده العالم الإسلامي في عصر الكاتب كان نتاج عوامل سياسية واقتصادية متعددة، منها الاستعمار نفسه، وليس نتاج "النص الديني."

ويعترف بتفوق التشريع الإسلامي في "حق التملك" (وهو اعتراف قانوني مهم)، لكنه يحاول الالتفاف عليه بإثارة قضايا التعدد والطلاق.

- **حق التملك** :في الوقت الذي كان الكاتب يكتب فيه، كانت المرأة في بريطانيا حتى عام 1882 (قانون ملكية المرأة المتزوجة) لا تملك حق التصرف في مالها دون إذن زوجها، بينما كفل الإسلام للمرأة ذمة مالية مستقلة منذ القرن السابع.
- **تعدد الزوجات** :طرحه الإسلام كنظام اجتماعي ولم يطرحه كـ "نظام أناني."

- **الطلاق** :وصفه النبي ﷺ بأنه "أبغض الحلال"، وجعل له ضوابط (العدة، النفقة، السكنى) تمنع تقلب الأهواء، بينما كانت المسيحية في تلك الحقبة (خاصة الكاثوليكية) تحرم الطلاق تماماً، مما كان يؤدي لمآسي اجتماعية أكبر أو علاقات خارج إطار الزواج.

يتحدث عن "أمور تستحق الشجب" بناءً على مؤرخين يصفهم بالحياد، والحياد" في القرن التاسع عشر كان عملة نادرة، فالمؤرخون المعاصرون مثل: (كارين آرمسترونغ أو مونتغمري وات) أثبتوا أن محمد ﷺ كان "عبقرياً أخلاقياً" استطاع تحويل مجتمع همجي إلى مجتمع يحكمه القانون والعدل في أقل من 23 عاماً، ما يراه الكاتب "شجباً" هو في الحقيقة قراءة للنصوص خارج سياقها الزمني والاجتماعي.

المقدمة

مثلما طبع يسوع شخصيته على الدين الذي نشأ من شخصه، كذلك طبع محمد شخصيته على النظام الذي أسسه ببراعة مذهلة. إن التأثير العملي للإسلام على حياة الأفراد ينتج عنه نتائج، تعكس بوضوح شخصية مؤسسه، كما أن الدراسة المتأنية لمبادئ النظام في علاقتها بتاريخه تمكن الدارس من تقدير القيمة الحقيقية لهذا الرجل.

محمد هو المثل الأعلى لكل مسلم حقيقي، بصفته رسول الله. حياته هي المعيار الذي تُقاس به حياة أتباعه، على الرغم من أنه يعترف بنفسه، أن حياته لم تكن مقدسة في القرآن والتقاليد السابقة، يُصوَّر على أنه ليس بأي حال من الأحوال أفضل من أقرانه، وأنه ضعيف وعرضة للخطأ مثل أفقر معاصريه. لكن التقاليد اللاحقة تقلل من شأن أخطائه وضعفه، وتحيط شخصه بهالة من المجد تجعله يبدو بلا خطيئة وكأنه إله. كل الأحداث المشكوك فيها في حياته إما تم حذفها وتجاهلها، أو تم دعمها والدفاع عنها بجدية من قبل أتباعه الأتقياء المضللين.

من النقاط التي ترجح كفته أنه لم يدّعِ قط عصمة أفعاله أو آرائه؛ وعادته في محاولة التستر على أخطائه الفاضحة أو تبريرها بواسطة الوحي المناسب، رغم أنها غير أخلاقية بشكل لا يمكن الدفاع عنه، تكشف حقيقة أنه كان واعياً بنواقصه. عندما كان في ذروة سلطته، أصبح "الوحي" مجرد أداة لتعظيم الذات، يمنحه الحرية في كل نزوة وخيال، لأنه أعطاه، بصفته نبي الله، إعفاءً من كل قوانين ونظام. كان مخططه مبتكرًا وغير أخلاقي بشكل مميز. لو كان يعلم بالبهاء الإلهي الذي أحاط به لاحقًا أتباعه المتعصبون، لكان على الأرجح قد رفضه بشدة. القداسة المتناقضة التي كانت تمنح تصريحاته العادية وأفعاله التافهة كانت ستسبب خوفا خشية أن تصبح إهانة لعقيدته في الوحدة الإلهية.

الرد

يقارن الكاتب بين شخصيتي عيسى ومحمد عليهما السلام، ثم ينطلق من مقدمة تفترض أن الإسلام يجب أن يتبع نمط المسيحية في "تجسد الدين في شخص المؤسس" من المنظور الإسلامي، هذا قياس مع الفارق؛ فبينما تتمحور المسيحية حول "شخص" المسيح بوصفه طريق الخلاص، يتمحور الإسلام حول "الرسالة" (القرآن والسنة) والتوحيد المطلق. النبي محمد ﷺ في التصور الإسلامي إنما هو "بشر يوحى إليه"، وكمال شخصيته يُستمد من امتثاله للوحي وليس من كونه مصدراً ذاتياً للدين.

يزعم الكاتب أن النبي ﷺ استخدم "الوحي" لتبرير أخطائه، وعلماء المسلمين يفرقون بين الوحي "البلاغ" (الذي هو معصوم بالضرورة لنقل الرسالة) وبين "الاجتهاد البشري" في الأمور الدنيوية. ويغفل المستشرق على أن القرآن نفسه احتوى على آيات عتاب للنبي (مثل سورة "عبس") و(حادثة زيد بن ثابت)، وهو ما يعده الباحثون المسلمون أكبر دليل على صدق نبوته؛ فلو كان الوحي أداة لـ "التمويه" كما يدعي الكاتب، لما خلد النبي مواقف تُظهر مراجعته من قبل السماء.

يشير الكاتب إلى أن الروايات المتأخرة **"جمّلت"** صورة النبي ﷺ بينما أظهرته المصادر المبكرة **كبشر و** "بشرية" النبي ﷺ كانت دائماً ركيزة أساسية في العقيدة الإسلامية (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)، أما "الهالة" التي يتحدث عنها الكاتب، فهي تعبير عن "المحبة الإتباعية" كما في الأدب الشعبي، وليست تغييراً في أصل العقيدة التي ترفض تأليه البشر بشكل قاطع (العقيدة المركزية: لا إله إلا الله).

يستخدم الكاتب عبارات متناقضة مثل "براعة مذهلة" و"مخطط غير أخلاقي." من الصعب منهجياً قبول فكرة أن نظاماً قانونياً وأخلاقياً صمد لأكثر من 1400 عام، وبنى حضارة عالمية، يمكن أن يكون نتاج "نزوات شخصية". العبقرية في بناء الأمة والدولة التي يعترف بها الكاتب، تتناقض مع دعوى "الفوضى والتحلل من النظام" التي رماها بها.

التقاليد

من الواضح أن التقاليد ليست مصدراً موثوقاً للمعلومات، فهي مشوبة بالحماس المفرط والتحيز غير العقلاني لأشخاص شوهت تعصبهم الجامح حكمهم. فقد نسبوا إلى بطلهم عناصر مستحيلة بشكل غريب. كان ظهوره في تقديرهم مهيباً لدرجة أنه احتُفل به بأحداث قلبت كل قوانين الطبيعة في ذلك الوقت. وقد ارتبطت حياته كلها بأحداث خارقة من النوع الأكثر سخافة. وقد رفع رجال أكثر عقلانية من شأن النبي لأنهم أقنعوا أنفسهم بأنه كان ما ينبغي أن يكون. وهذا قد يفسر الثقة المتدينة لبعض الأذكياء الذين قبلوا التقاليد على أنها تاريخية، ورفعوا من شأن بطلهم إلى المثالية، وتقبلوا المجد المتخيل على أنه حقيقي. وتتجلى هذه النزعة إلى تمجيد سيدهم جيدًا في مقولة شافعي: «في تمجيد محمد، من المشروع المبالغة»، وهي مقولة لا تقدر بثمن بالنسبة للرجال الذين كانوا يسعون إلى تمجيد النبي، وقد قدر المشرعون والأطباء فائدتها تقديرًا كاملاً عندما طُلب منهم التعامل مع العلاقات والظروف الطارئة الجديدة التي نشأت بعد وفاته. استلزمت فتوحات الإسلام وتقدمه وضع قواعد جديدة بشكل شبه يومي، بينما تطلب تطبيق القواعد القديمة تعديلات وتكييفات مستمرة. لتلبية هذه الاحتياجات، تم البحث بشغف عن أقوال وأفعال النبي الفعلية أو المفترضة، ومع مرور الوقت، ومع نمو جماعة مهنية من التقليديين، واستنفاد جميع المصادر الشرعية، تم قبول ما كان مشكوكًا فيه، وحتى ما كان موضع خلاف، على أنه أصيل وموثوق. زاد الخيال من مصادر المعلومات الشرعية، وكانت النتيجة تراكم شامل للسوابق لكل الظروف الممكنة.

يقول سبرينجر، في مقاله عن "التقليد"، فيما يتعلق بقيمة وطبيعة المواد اللازمة لتجميع سيرة محمد:

"خلال فترة الاضطراب والنشاط التي سادت في السنوات الستين الأولى، انشغل الآلاف والآلاف بنقل التقاليد، كانوا يحفظونها عن ظهر قلب في كل مسجد، ويكررونها في كل تجمع اجتماعي. كانت كل هذه المعرفة ملكية مشتركة للأمة؛ كانت تُحفظ عن ظهر قلب وتُنقل شفوياً. لذلك، كانت تمتلك، إلى أقصى درجة ممكنة، عناصر الحياة والمرونة. اكتشف بونسون إلهية الكتاب المقدس في كونه دائماً كتاب الشعب. إذا كان هذا المعيار هو المعيار الحاسم، فلا توجد ديانة أخرى تستحق أن تسمى «صوت الله» أكثر من غيرها، لأنه لا توجد ديانة أخرى تمثل «صوت الشعب» بالمعنى الكامل للكلمة. تتمتع إبداعات الفترة التي ندرسها بهذه الخاصية بالنسبة لمئات الملايين من بني جنسنا؛ لأن الإسلام الحديث بعيد كل البعد عن الروح التي كُتب بها

القرآن، كما يبتعد الكاثوليكية عن روح الإنجيل؛ والإسلام الحديث قائم على التقاليد. لكننا لا نجد في التقاليد سوى المثالية والابتكار والخيال، أما الحقائق التاريخية، مهما كانت متداولة بين الناس في أيام ابن عباس وغيره من مؤسسي الأنساب، فقد داستها الأقدام، لأن الناس أرادوا إزالة كل العوائق التي تقف في طريق تمجيد الذات. ومن بين آلاف الاختراعات التي كانت تولد كل يوم، لم يُعترف إلا بتلك التي كانت تغذي الفخر الديني والقومي."...

ويواصل قائلاً:

"لقد ولت أيام الإبداع، وعصر نمو المعرفة الإسلامية. لقد خنق الحجاج الحياة الشابة بدمائها، وباعت الأسرة العباسية، بوطنية ملكية، غزوات الأمة التي تم الحصول عليها بشق الأنفس، أولاً إلى الفرس، ثم إلى العبيد الأتراك، بهدف الحصول على أمن وهمي لعرشهم. وهكذا نشأت فترة جديدة للحياة الروحية. وقد بدأ واكيدي بالفعل في تشكيل مخزونه التراثي الضخم، وانشغل في مجال الصناعة العلمية. وفي المدارس، لم يكن بالإمكان الآن التأثير على التقاليد المادية أو تغيير طبيعتها، مثلما لا يمكن تغيير جسم الطفل حديث الولادة. مهما كانت اختراع «المعراج» (رحلة محمد السماوية) وغيرها من الافتراءات في القرن الأول تعسفية، فإنها شكلت بهذه الطريقة العنصر الإيجابي وروح الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية. واقتصرت المدارس، كما هو الحال دائمًا، على جمع ومقارنة وتلخيص وتنظيم والتعليق. كان المادة كلها إلهية؛ وأي بحث تاريخي غير متحيز، وأي تفسير بسيط وطبيعي للقرآن، وأي حكم حر على التقاليد أو أصلها، كان يُدان على أنه ردة. المهمة الوحيدة التي بقيت هي العمل على المادة الموجودة بشكل علمي؛ وبهذه الطريقة تم تطوير أدب ذي أبعاد لا حدود لها، ولكنه في الأساس لا يمتلك أي شيء حقيقي. إن النشاط الروحي للمسلمين بأكمله، منذ عهد النبي وحتى يومنا هذا، هو حلم؛ ولكنه حلم عاش فيه جزء كبير من الجنس البشري؛ وهو يحظى بكل الاهتمام الذي تحظى به دائماً الأشياء المتعلقة بالبشرية بالنسبة للإنسان".

يتفق السير ويليام موير مع هذه الآراء، مع مراعاة اعتبارين. يقول:

"إن الميل إلى تمجيد محمد ومروي الأحاديث قد تغير بشكل كبير بسبب الصراع الدامي الذي ميز الفصائل المتعارضة في تلك الفترة، حيث لم يكونوا يمانعون في تكريس الأحاديث لدعم ادعاءاتهم في محاولة لتقليل شأن بعضهم البعض؛ وقد حافظت هذه الحزبية على مجموعة لا بأس بها من الحقائق التاريخية التي كانت ستضيع لولا ذلك".

كما يشير إلى أنه في مجتمع محصور ومقيد بالنظام الإسلامي القوي، الذي يحظر حرية التفكير والمناقشة، لا يمكن القول إن التقاليد تمثل "صوت الشعب". إن نمو وتطور التقاليد، والتشويه الصارخ للحقائق التاريخية، والمدونة الأخلاقية للإسلام، قد تثير تساؤلات حول صحة ادعاءات النبي المتغطرسة، ومن خلال أساليب دفاعهم ذاتها، يظهر المدافعون عن الإسلام ضعفه وعدم كفايته لتلبية الاحتياجات الدينية للإنسان. يتجلى التحيز الطبيعي لمحمد في جميع أنحاء القرآن. إن مفاهيمه عن الله، والحياة الآخرة، وواجب الإنسان، كلها متأثرة بشغفه الملتهب. تفتقر جميع كتاباته إلى تلك الخصائص التي تميز النبي الحقيقي – رسول الله – عن أولئك الذين أُرسل إليهم. ويتضح ذلك من خلال مقارنة آرائه بآراء أي من أنبياء العهد القديم. فقد كانوا رجالاً بارزين استعدوا لمهمتهم السامية من خلال اتصالهم السامي والعملي بالله — رجالاً استلهموا رسالتهم من رؤية جلال الله، ومفهوم مثير للإعجاب عن عدالة يهوه ونقاوته المذهلة. رجال دعوا الأمة إلى الحياة الصالحة من خلال نداء مؤثر إلى الضمير، وإدانة لا تتزعزع لشرور العصر. لذلك، فإن تطلعاتهم الروحية تفوق بكثير أسمى المثل العليا لنبي الإسلام، في حين أن مفاهيمهم الأخلاقية تتجاوز إلى ما لا نهاية كل ما حلم به محمد. إن صوت الأزلي مسموع بوضوح في الكلمات الجادة التي انطلقت من شفاههم، ومن خلال جميع نبوءاتهم يتضح استعداد الرحمة الإلهية للتفاهم مع البشر على الرغم من طرقهم الخاطئة.

هناك ثلاثة عناصر مميزة في وعظهم: ضمير حاد وعملي للغاية تجاه الخطيئة؛ رؤية قوية لله؛ وإدراك حاد للغاية للسياسة في عصرهم. من بين هذه العناصر، لا يمتلك تعاليم محمد سوى العنصر الأخير.

الرد

فرية "المبالغة المشروعة" ونسبة قول للشافعي: "في تمجيد محمد من المشروع المبالغة."

- هذه العبارة **لا أصل لها** في كتب الشافعي (مثل "الأم" أو "الرسالة")، بل هي تناقض منهجه الصارم في تقعيد أصول الفقه. الشافعي هو من وضع شروط "اتصال السند" و"عدالة الرواة."
- المنهج الإسلامي قام على "الجرح والتعديل"، وهو علم لم تعرفه أمة من قبل، حيث تم نبذ آلاف الأحاديث لمجرد أن راوياً واحداً عُرف عنه "الكذب في حديث الناس" (وليس الكذب في الدين فقط). فكيف يُقال إن المبالغة كانت مشروعاً؟

دعوى "صناعة التقاليد" لتلبية الاحتياجات السياسية: يزعم أن التقاليد اختُرعت لسد ثغرات الفتوحات والاحتياجات القانونية الجديدة.

- وبذلك يخلط بين "**الحديث**" (النص) وبين "**الاجتهاد**" (الفقه). عندما واجه المسلمون ظروفاً جديدة، لجأوا إلى "القياس" و"الإجماع" و"الرأي"، ولم يجدوا حاجة لاختراع أحاديث. ولو كان الاختراع سهلاً كما يدعي، لما وجدنا الفقهاء يختلفون في المسائل بناءً على تأويل النص الواحد، بل لكان كل فريق قد اخترع نصاً يوافقه تماماً.

وصف "سبرنجر" للسنة بأنها "حلم" أو "خيال" يقول سبرنجر: إن الحقائق التاريخية "دِيست بالأقدام" لصالح التمجيد الذاتي.

- سبرنجر يغفل عن "السلسلة الإسنادية". الإسلام لم يعتمد على "صوت الشعب" بالمعنى الغوغائي، بل اعتمد على "**النخبة الناقلة**."
- المسلمون هم أول من استخدم "النقد الداخلي والخارجي" للنص. إذا كان الهدف هو التمجيد فقط، فلماذا نجد في كتب الأحاديث الصحيحة (مثل البخاري ومسلم) روايات تذكر "بشرية" النبي، حزنه، مرضه، وحتى سهوه في الصلاة؟ لو كان الخيال هو الحاكم، لمُسحت هذه الروايات تماماً.

المقارنة بين أنبياء العهد القديم ومحمد ﷺ

يزعم الكاتب أن أنبياء العهد القديم كان لديهم "ضمير حاد تجاه الخطيئة" بينما يفتقر محمد لذلك. وهذه مقارنة "ذاتية" وليست علمية.

- القرآن مليء بآيات التوبة والاستغفار، والنبي ﷺ كان يقول "إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة."
- اتهم الكاتب النبي بأن مفاهيمه عن الله "متأثرة بشغفه". والحقيقة أن القرآن قدم أنقى صورة لـ "**التنزيه المطلق** "(ليس كمثله شيء)، بينما نجد في العهد القديم الذي يمدحه الكاتب نصوصاً تنسب لله "الندم" أو "المصارعة البشرية" (تجسيم)، وهي أمور نزه الإسلام الذات الإلهية عنها.

مغالطة "غياب صوت الشعب" يدعي ويليام موير أن النظام الإسلامي القوي خنق حرية التفكير

وهذا يتناقض مع الواقع التاريخي. العصر الذي يتحدث عنه (القرن الأول والثاني) هو عصر "المدارس الفقهية الكبرى" وعصر "المعتزلة" و"الفلاسفة". كان هناك حراك فكري وجدلي هائل. التقاليد لم تُفرض بقرار إمبراطوري (كما حدث في بعض المجامع الكنسية)، بل نضجت عبر قرون من النقد العلمي الشعبي والمؤسسي.

تصور محمد للإله في جوهره

إن تصوره للإله هو تصور "ربوبي (Deistical) "فالتواصل الشخصي الحميم، الذي يُميز العهد القديم، غير معروف وغير مُحقق (في الإسلام)؛ ومن ثم، لا يوجد في نظامه ما يقرب الناس من الله، إن وجد شيء على الإطلاق. وقد بذلت الطرق الصوفية محاولات عقيمة لتصحيح هذا العيب المميز، فبينما اعترفت بمزاعم محمد وكتابه، أدخلت أساليب لا يقرها النظام، تحاول من خلالها إيجاد التواصل مع الغيب الذي تتوق إليه أرواحها. وهذه الأساليب تشبه إلى حد كبير جهود أتباع الهندوسية. لذلك، هناك نقص بين المسلمين في الحاجة التي تنشأ عن العلاقة الشخصية مع الإله – تلك الحاجة التي تؤدي إلى التحول الأخلاقي والكثافة الروحية من جانب أولئك الذين يتمتعون بهذه الشركة. الخالق موجود بمعزل عن صنعه. لقد حدد مسبقًا أفعال البشر. إنهم مقدر لهم النعيم الأبدي أو الهلاك بفعل إرادة لا تلين، بحيث لا داعي لتدخل الإلهي في شؤونهم. "الله في سمائه، والعالم يسير نحو نهايته وفقًا لمشيئته التي لا تتغير".

بسبب هذا المفهوم الفظ، أطلق بالجريف على هذا النظام اسم "وحدانية القوة"، وقال:

"مبالغًا في تعظيمه إلى ما لا نهاية وأبديًا، ومختلفًا عن جميع المخلوقات، التي سوى بينها أمامه على مستوى واحد من الأدوات والجمود، الله واحد في مجموع أفعاله القاهرة والواسعة الانتشار، التي لا تعترف بأي قاعدة أو معيار أو حدود، سوى إرادته الوحيدة والمطلقة. لا يتواصل مع مخلوقاته بأي شيء، لأن قوتهم الظاهرة وأفعالهم تظل دائمًا له وحده، وفي المقابل لا يتلقى منهم أي شيء؛ لأنهم مهما كانوا، فهم فيه، وبواسطته، ومنه وحده. وثانيًا، لا يمكن لأي مخلوق أن يدعي شرعيًا أي تفوق أو تمييز أو أسبقية على أخيه، في المساواة المطلقة بينهم في العبودية والإذلال غير الاستثنائيين؛ فجميعهم أدوات متشابهة للقوة الوحيدة التي تستخدمهم للسحق أو الإفادة، للحق أو للباطل، للشرف أو العار، للسعادة أو البؤس، بشكل مستقل تمامًا عن لياقتهم الفردية أو استحقاقهم أو مزاياهم، وببساطة لأن "هو يريد ذلك"، و"كما يريد هو...".

"قد يظن المرء للوهلة الأولى أن هذا المستبد العظيم، هذه القوة الجامحة وغير المتعاطفة، ستكون فوق أي شيء مثل العواطف أو الرغبات أو الميول. لكن الأمر ليس كذلك، فله، فيما يتعلق بمخلوقاته، شعور واحد ومصدر واحد للعمل، وهو الغيرة منهم، خشية أن ينسبوا لأنفسهم شيئًا من ما هو له وحده، وبالتالي يتعدون على مملكته الشاملة. ومن ثم فهو يميل دائمًا إلى العقاب أكثر من المكافأة؛ وإلحاق الألم أكثر من منح

المتعة؛ والهدم أكثر من البناء. إنه يشعر برضا فريد عندما يجعل المخلوقات تشعر باستمرار أنها ليست سوى عبيد له، وأدواته، وأدواته الحقيرة أيضاً؛ حتى يعترفوا بشكل أفضل بتفوقه، ويعرفوا أن قوته تفوق قوتهم، ومكره يفوق مكرهم، وإرادته تفوق إرادتهم، وكبريائه يفوق كبريائهم – أو بالأحرى، أنه لا توجد قوة أو مكر أو إرادة أو كبرياء سوى قوته ومكره وإرادته وكبريائه.

"لكنه هو نفسه، عقيم في مرتفعاته التي لا يمكن الوصول إليها، لا يحب ولا يستمتع بشيء سوى قراره الخاص الذي يحدده بنفسه، بدون ابن أو رفيق أو مستشار، فهو عقيم عن نفسه بقدر ما هو عقيم عن مخلوقاته، وعقمه وأنانيته الوحيدة في نفسه هي سبب وقاعدة استبداده اللامبالي وغير المكترث في كل مكان. النغمة الأولى هي مفتاح اللحن بأكمله، والفكرة الأساسية عن الله تمر عبر النظام والعقيدة بأكملهما وتغيرهما، وهما يركزان عليه".

قارن هذا الملخص بتعاليم أنبياء العهد القديم، والتي لا تمثل الاقتباسات التالية منها سوى عينة صغيرة:

"تعالوا الآن، ولنتفاهم معًا، يقول الرب. وإن كانت خطاياكم كالقرمز، فستصبح بيضاء كالثلج؛ وإن كانت حمراء كالقرمز، فستصبح كالصوف".

"عزوا، عزوا، يا شعبي، يقول إلهكم. تكلموا برفق إلى أورشليم، ونادوا عليها أن حربها قد انتهت، وأن إثمها قد غُفر".

"روح الرب الله عليّ، لأن الرب مسحني لأبشر المساكين. أرسلني لأضمد المنكسري القلوب، لأعلن الحرية للأسرى، وفتح السجن للمقيدين، إلخ".

"كما تعزي الأم ابنها، هكذا أعزيكم، يقول الرب".

"من هو إله مثلك، يغفر الإثم، ويتجاوز عن معصية بقايا ميراثه؟ لا يبقي غضبه إلى الأبد، لأنه يسر بالرحمة. سيرجع، ويرحمنا. سيخضع آثامنا، وتلقي بجميع خطايانا في أعماق البحر".

"لقد أراك يا إنسان ما هو الصالح، وماذا يطلب الرب منك إلا أن تعمل بالعدل وتحب الرحمة وتسير بتواضع مع إلهك".

"الرب صالح، حصن في يوم الضيق، وهو يعرف الذين يتوكلون عليه".

في ضوء هذه التعاليم السامية، تبدو مفاهيم محمد فظة ومتدنية. لم تجلب له زهده وتأمله رؤية الله التي تغمره وتطهره كالنار. لم يعرف الخالق إلا من خلال ما سمعه من أفواه رجال آثمين جاهلين، كانت أفكارهم عن الإله دنيئة ومتواضعة. هذه الأفكار، والعواطف التي شكلت جزءًا كبيرًا من حياته، حجبت رؤيته، وشوهت حكمه، وقادته إلى افتراض إله لا يسكن عالمًا روحيًا مقدسًا، بل جنة جسدية وحسية فاضحة.

لقد وقع الملايين تحت سيطرته لأن نظامه يرضي الميول الطبيعية للإنسان. فالبصيرة الروحية أعمتها الرغبات الجسدية؛ والسلوك تأثر بالانفلات الجامح؛ والتعصب والكراهية تغذيهما سياسته القائمة على عدم التسامح؛ وأتباعه مستعبدون لطغيان يفسد العقل، لأنه يثبط البحث، ويضع حاجزًا لا يمكن تجاوزه في طريق كل تقدم إنساني.

عند دراسة حياة محمد، يتضح سبب فشله في الارتقاء بالبشرية. لقد ابتلعت طموحاته الجامحة صدقه المبكر، إن كان يمكن تسميته صدقًا. ولو كان الأمر خلاف ذلك، لربما كان اسمه قد نُقش مع أسماء الشرفاء على وجه الأرض — أولئك الرجال الذين صدقت ادعاءاتهم آثارهم السعيدة. أما الآن، فإن اسمه مرتبط بأسماء أولئك الذين تثير أفعالهم الرعب والاشمئزاز لدى كل من يحبون الصدق والنقاء والحقيقة.

الرد

يزعم الكاتب أن إله الإسلام "يغار" من مخلوقاته ويستمتع بإذلالهم ليشعر بتفوقه.

- هذا التصور ينم عن جهل تام بمفهوم "**الغنى المطلق** "في الإسلام. القرآن ينص صراحة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ 15 ﴾ [فاطر: 15]. الله في الإسلام لا يحتاج لاعتراف البشر ليثبت قوته، والعبادة في المنظور الإسلامي هي مصلحة "للمخلوق" ليتحرر من عبودية الأشياء، لا حاجة "للخالق". أما وصفه بـ "المكر"، فالقرآن استخدمها في سياق "المقابلة" (ومكروا ومكر الله) وهو رد الفعل العادل على الخداع، وليس صفة ابتداء.

يصف الكاتب وحدانية الله بأنها "عقم" لأنها لا تتضمن ابناً أو شريكاً.

- الكاتب يخلط هنا بين "الوحدانية الوجودية" وبين "العزلة الروحية". الإسلام ينزه الله عن التناسل (لم يلد ولم يولد) لأن الولادة صفة بيولوجية تقتضي الحاجة والضعف والمشابهة، وهذا هو "التنزيه المطلق". لكن هذا التنزيه يقابله "**قرب معنوي**" هائل؛ فالله في الإسلام هو "الودود"، "الرحيم"، "المجيب"، وهو "أقرب إلى العبد من حبل الوريد". العقم يكون في عدم القدرة على الفعل، بينما إله الإسلام "كل يوم هو في شأن."

يستعرض الكاتب نصوصاً من العهد القديم تتحدث عن الرحمة والغفران، ويدعي خلو الإسلام منها.

- هذه "انتقائية غير علمية". فمقابل كل نص وضعه، يوجد في القرآن ما يوازيه أو يفوقه في "الحنو الإلهي":
  - مقابل "تفاهموا معاً": نجد (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)
  - مقابل "تعزية الأم": نجد الحديث النبوي الشهير (لله أرحم بعباده من هذه بولدها).
  - كل سورة في القرآن (عدا واحدة) تبدأ بـ "**الرحمن الرحيم**"، والرحمة لها منزلة كبيرة في الإسلام وهذا يدل على أنه السائد، وقد رفض الإسلام الاستبداد.

يهاجم الكاتب وصف الجنة في الإسلام معتبراً إياها "جسدية وحسية."

- هذا نقد قديم يغفل الأبعاد الروحية. الجنة في الإسلام هي جزاء "للإنسان" بكامل تكوينه (روحاً وجسداً). والغريب أن الكاتب يمدح العهد القديم الذي امتلأ بوعود "الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً" (وهي وعود مادية صرفة)، ثم يعيب على الإسلام وعوده بالنعيم. والأهم أن أعلى نعيم في الجنة الإسلامية هو "**رضوان من الله** "و "**رؤية وجهه الكريم**"، وهي قمة السمو الروحي.

يزعم أن النظام الإسلامي يمنع التفكير ويضع حاجزاً أمام التقدم.

- هذا الادعاء يكذبه التاريخ والواقع. القرآن هو الكتاب الوحيد الذي جعل "التفكر" فريضة، وذم الذين "لا يعقلون" في أكثر من 50 موضعاً. الحضارة الإسلامية هي التي أوجدت المنهج التجريبي بينما كانت أوروبا تغط في عصور الظلام وتُحاكم العلماء بتهمة الهرطقة.

أولاً - طفولته.

ولد محمد في مكة، وهي مدينة في شبه الجزيرة العربية، على بعد حوالي 70 ميلاً من البحر الأحمر. كان والده، الذي توفي عام 570 م، قبل بضعة أشهر من ولادة الطفل، عضواً في عشيرة بني هاشم. كانت عائلته، على الرغم من علاقاتها الجيدة، عائلة متواضعة، لا تملك سوى القليل من الثروة. عند وفاة والدته بعد حوالي ست سنوات، تولى جده عبد المطلب رعاية الطفل لمدة عامين. ثم تبنّاه عمه أبو طالب، الذي وظّفه لرعاية قطعانه وماشيته.

منذ صغره، لا بد أن محمد قد تعرف على الحياة الدينية في مكة، لأن جده كان حارس الكعبة، أو المعبد، وكان كثيرًا ما يصطحب الصبي معه في زياراته الرسمية إلى المكان. كانت الصور العديدة للآلهة الموضوعة في المعبد مألوفة للنبي المستقبلي، الذي أدى حماسه في تحطيم الأصنام في النهاية إلى تدميرها. ساعدت حياته الرعوية المنعزلة على تنمية عاداته التأملية في مرحلة الرجولة، ولعبت دورًا مهمًا في تطوير تلك الخصائص التي جعلته مناسبًا بشكل بارز للحياة التي كان سيقودها. لقد منحته الطبيعة القدرات الأساسية لقائد الرجال، ووفرت له بيئته المبكرة تدريبًا مكنه من ممارسة تلك المواهب على النحو الأمثل.

كان سكان شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت يتألفون من العديد من القبائل البدوية المستقلة، التي كانت في كثير من الأحيان على عداوة مع بعضها البعض. لم تكن هناك وحدة سياسية، بينما كان لكل قبيلة راعيها أو إلهها الخاص، الذي كان يعتبر مسؤولاً عن كل ما يتعلق برفاهية القبيلة. وحيثما كانت القبائل متحدة أو في سلام، كان من المفترض أن تكون الآلهة الفردية ودودة. حتى في مكة، التي كانت مأهولة لسنوات عديدة بمجتمع مستقر، لم يكن هناك أي تنظيم سياسي أو قضائي. كان النظام القائم يحافظ عليه شكل من أشكال الحكم الأبوي، والذي كان بموجبه من الممكن لزعيم القبيلة أو العشيرة حماية حياة أي فرد يختار أن يكون صديقًا له.

كان من الواضح أن المعتقدات والعادات الدينية كانت تشوهات مادية فاضحة لما كان في يوم من الأيام عبادة روحية بحتة. سبق محمد رجال كانوا، من وقت لآخر، على الرغم من الظلام الأخلاقي والفكري، يتمتعون بإدراك روحي لدرجة أنهم أدركوا وانتحبوا على فراغ وتدهور النظام الوثني. وقد كان بعضهم، في الواقع، واعين بما يكفي لينطقوا بكلمات الإدانة؛ بينما ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فاحتقروا وساخرو من

ادعاءاته. لذلك، عندما ولد محمد، كان الناس في حالة من عدم اليقين الديني. وقد ساهمت عوامل عديدة في هذا الاضطراب. علم المسافرون أن الأمم الأكثر ازدهارًا قد رفضت العقوبات القديمة للوثنية؛ ولم يستطع الرجال الجادون والمفكرون إلا أن يدركوا عدم كفايتها لتلبية التطلعات الدينية لأقرانهم؛ وقد أدخل اليهود والمسيحيون، الذين استقروا في البلاد، آراء جذبت أولئك الذين كانوا غير راضين عن أساليب التفكير القديمة؛ في حين أن الحاجة إلى الوحدة الاجتماعية والسياسية استدعت قوة توحد القبائل المتفرقة في السعي وراء المثل العليا المشتركة. وهكذا كانت الأرض مهيأة للثورة العظيمة التي كانت على وشك الحدوث — ثورة جعلت من القبائل المختلفة أمة عظيمة واحدة، وحولت غرائزها الحربية وتعصبها المميز، الذي كان قد تبدد من قبل بسبب الصراعات الداخلية المدمرة، إلى قناة واحدة محددة، حتى أصبح تهديدًا للعالم بأسره. كان هذا التغيير قويًا لدرجة أنه، في حياة رجل واحد، تمكن من محو جزء من العقوبات والمعتقدات التي استمرت لقرون، عن طريق الاستيعاب، وبشكل أساسي عن طريق الإبادة، وأدى إلى تغذية كراهية شديدة وأخوة قوية بين البشر، لدرجة أن أقوى روابط الإنسانية وأعزها وأرقها انقطعت، بينما توحد أولئك الذين عاشوا في عداوة لسنوات في روابط أقوى من الموت. تحت تأثيره الخبيث، قتل الأطفال آباءهم بلا رحمة، معتقدين أن ذلك سيؤهلهم لدخول الجنة. وقاتل رجال من أعراق مختلفة جنبًا إلى جنب تحت راية واحدة، واندفعوا ببطولة متعصبة على أعدائهم، معتقدين أن الموت بهذه الطريقة يعني الفوز بتاج خالد.

خلال طفولته، أتيحت لمحمد العديد من الفرص لمراقبة الأوضاع، وبفضل امتيازه في السفر مع القوافل، تمكن حتى من ملاحظة التباين بين أوضاع شعبه وأوضاع الأمم الأكثر سلامًا وازدهارًا. كان يرافق عمه في كثير من الأحيان في المعارك التي كانت تندلع بين القبائل، وبذلك اكتسب معرفة بالاستراتيجيات العسكرية التي أثبتت فائدتها في وقت لاحق. يقترح مارغوليوث أن أهم درسين تعلمهما «النبي» في تلك الفترة هما ضرورة تسوية النزاعات الدموية بطريقة أقل إهدارًا وأكثر إرضاءً من تلك التي جسدتها حرب فيزار، وأن الحرب لا ينبغي اعتبارها لعبة، بل وسيلة للحصول على نتائج حاسمة.

كان للتجارب المتنوعة التي مر بها خلال رحلاته مع القوافل تأثير كبير على سياسته المستقبلية؛ بل يبدو أن جميع التأثيرات التي أثرت على حياته المبكرة كانت قوى شكلته وأعدته للمنصب الذي كان سيشغله. كان شديد الملاحظة ودقيقًا بشكل مذهل في استنتاجاته، خاصة في تقييمه لشخصيات الرجال الذين كان عليه

التعامل معهم. كان يبدو أنه يفتقر إلى المبادرة، لأنه كان دائمًا مترددًا في اتخاذ أي إجراء في أي مشروع مهم؛ ولكن بمجرد اتخاذ الخطوة الأولى، كان يمضي قدمًا بشجاعة لا تقهر. أثبت في معاملاته التجارية أنه ذكي ولطيف، وبفضل إخلاصه وصبره وثقته بنفسه، نال احترام وتقدير زملائه المقربين.

وقد عهدت خديجة، وهي أرملة ثرية، إلى محمد بإدارة قافلة مهمة، ولما رأت مدى براعته في أداء مهمته، استنتجت بحكمة أن مصالحها ستتعزز إذا شاركها فيها. ومن هنا جاء زواجهما، الذي ثبت أنه ترتيب سعيد ومبارك وناجح للطرفين. وقد حسّن ذلك بشكل كبير من مكانة محمد الاجتماعية، ورفعه إلى مرتبة متساوية مع رجال المدينة البارزين. لسنوات عديدة، كان محمد راضياً بالعيش بهدوء كمواطن عادي، منشغلاً في جمع الثروة من خلال التجارة المشروعة.

الرد

يتفق المؤرخون (مثل مونتغمري وات في دراسته "محمد في مكة") على أن مكة لم تكن مجرد مدينة عادية، بل كانت **مركزاً تجارياً ودينياً** استراتيجياً.

- الكاتب محق في وصف غياب السلطة المركزية. كانت "القبيلة" هي الوحدة السياسية الأساسية، و"العصبية" هي القانون الحاكم. هذا الفراغ السياسي هو ما سمح لاحقاً للإسلام بتقديم نموذج "الأمة" كبديل يتجاوز الولاءات الضيقة.
- على الرغم من كونهم فرعاً نبيلاً، إلا أن ثقلهم الاقتصادي كان قد تراجع أمام فروع أخرى مثل بني أمية وبني مخزوم، مما جعل نشأة محمد في بيئة "متواضعة" (كما ذكر النص) عاملاً مهماً في صياغة شخصيته المنحازة للعدالة الاجتماعية لاحقاً.

يذكر الباحث **إدورد سعيد في نقده للمنهج الاستشراقي** كيف حاول بعض المستشرقين تفسير "النبوة" كناتج لظروف بيئية أو تأملات فردية:

- **حياة الرعي:** تساهم حياة الرعي في تنمية مهارات الملاحظة، الصبر، والقيادة الهادئة في السيرة النبوية، يُنظر للرعي كتمهيد لـ "رعاية الأمة."

- **الرحلات التجارية** :السفر إلى الشام لم يكن مجرد رحلات عمل، بل كان "انفتاحاً ثقافياً" على مجتمعات أهل الكتاب (النصارى واليهود). هذا التباين الحضاري بين مكة والمجتمعات المجاورة أوجد تساؤلات وجودية حول جدوى الوثنية العربية.

يشير إلى وجود "رجال أدركوا بطلان النظام الوثني"، تاريخياً، هؤلاء هم "**الحنفاء** " على ملة إبراهيم مثل ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل.

- كانت مكة تعيش حالة "مخاض ديني". الوثنية المادية لم تعد تشبع التطلعات الروحية للإنسان العربي المطلع.
- الصراع الذي خاضه محمد لاحقاً لم يكن ضد "الأصنام" كحجارة فقط، بل ضد "النظام الطبقي والاقتصادي" الذي كانت تحميه تلك الأصنام.

وقفة نقدية مع المصطلحات يحتوي النص على عبارات تحتاج إلى مراجعة من منظور علمي محايد:

1. **وصف التأثير بـ "الخبيث":**"هذه سقطة منهجية في النص الأصلي (المترجم). من الناحية السوسيولوجية، الإسلام لم يفكك الروابط الأسرية "بلا رحمة"، بل أعاد صياغة "عقد اجتماعي جديد" يقوم على العقيدة بدلاً من الدم، وهو ما يعتبره علماء الاجتماع (مثل ماكس فيبر) نقلة من "المجتمع التقليدي" إلى "المجتمع العقلاني/القانوني."
2. **تفسير الحروب** :يميل "مارغليوث" (الذي استشهد به النص) إلى التفسير المادي/العسكري البحت. الرد العلمي يوضح أن استخدام القوة في العهد المدني كان أداة سياسية لحماية الكيان الناشئ في بيئة لا تعترف إلا بالقوة، وليس مجرد "هواية عسكرية" اكتسبها من طفولته.
3. **الدافع وراء الزواج من خديجة** :يصور الزواج كخطوة "لتحسين المكانة". تاريخياً، استمر هذا الزواج 25 عاماً من الإخلاص المطلق والدعم الروحي، مما يشير إلى أن العلاقة كانت قائمة على التوافق الشخصي والقيمي أكثر من كونها صفقة اجتماعية.

النقاط التي أصاب فيها (التوافق التاريخي)

1. **النشأة واليتم** :أصاب في سرد الوقائع التاريخية الأساسية: ولادته في مكة، انتماؤه لبني هاشم، يتمه المبكر بوفاة والده ثم والدته ثم جده، وانتقاله لولاية عمه أبي طالب.

2. **البيئة السياسية والاجتماعية** :وصف بدقة غياب السلطة المركزية في مكة واعتماد المجتمع على النظام القبلي و"الحماية" (الجوار).

3. **مهنة الرعي والتجارة** :هذه حقائق ثابتة؛ فالرعي منح النبي ﷺ وقتًا للتأمل، والتجارة منحته خبرة في التعامل مع الناس وأخلاق البيع والشراء.

4. **حالة المخاض الديني** :أصاب في الإشارة إلى وجود "الحنفاء" (مثل ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو) الذين رفضوا عبادة الأصنام قبل البعثة، مما يدل على أن الفطرة السليمة كانت موجودة في مكة وتضيق بالوثنية.

5. **مكانة السيدة خديجة** : من الصحيح أن الزواج من خديجة رضي الله عنها وفر للنبي ﷺ استقراراً مادياً واجتماعياً مكنه من التفرغ للتعبد في غار حراء لاحقاً.

النقاط التي خالف فيها الصواب

1. **اللغة المتحيزة والمسيئة:**

- وصف أثر الإسلام بـ **"التأثير الخبيث"**، وهذا يتنافى مع الأمانة العلمية. فالإسلام لم يدعُ الأبناء لقتل آباءهم "بلا رحمة"، بل إن القرآن أكد على بر الوالدين حتى لو كانا مشركين (سورة لقمان). المواجهات العسكرية التي حدثت لاحقاً كانت صراعاً بين "مبدأين" (الحق والباطل) ولم تكن صراعاً أسرياً من أجل القتل.

2. **تفسير الدوافع الحربية (رؤية مارغليوث):**

- زعم أن النبي تعلم من طفولته أن الحرب "وسيلة للحصول على نتائج حاسمة" وليس مجرد لعبة.
- الفكر الإسلامي يرى أن الغزوات لم تكن هدفاً للسيطرة أو الغنائم، بل كانت **دفاعاً عن النفس** وإزالة للعوائق التي تمنع الناس من حرية الاعتقاد. النبي ﷺ لم يحضر "حرب الفجار" لتعلم الاستراتيجيات، بل كان دوره فيها ثانوياً (رد النبل عن أعمامه)، وكان يكره الدماء والظلم.

3. **تفسير دافع الزواج من خديجة:**

- **المخالفة :** لمح إلى أن الزواج كان "ترتيباً" لتعزيز المصالح والمكانة الاجتماعية.
- **الرد :**هذا اختزال مادي؛ فخديجة هي من خطبت النبي ﷺ لما رأت من "صدقه وأمانته وكرم أخلاقه"، ولم يكن هو باحثاً عن الثروة، بدليل أنه عاش معها حياة قائمة على السكن الروحي، ولم يتزوج عليها غيرها حتى وفاتها.

4. **تحطيم الأصنام:**

- **المخالفة :**ادعى أن "حماسه في تحطيم الأصنام أدى في النهاية إلى تدميرها" وكأن الأمر نابع من نزعة تدميرية منذ الصغر.
- **الرد :**النبي ﷺ لم يحطم صنماً واحداً في مكة طوال 13 عاماً من الدعوة، بل كان يحطم "الأفكار" الوثنية بالعقل والمنطق. لم يتم تحطيم الأصنام المادية إلا بعد فتح مكة (العام الثامن للهجرة) كإعلان لنهاية عصر الخرافة في بيت الله الحرام.

ثانياً - "الدعوة" إلى منصب النبوة.

لم يُسجل كيف بدأ في الاستجابة للدوافع التي قادته في النهاية إلى تولي دور المصلح، ولكن من المؤكد أنه في سن الأربعين كان زعيمًا لمنظمة سرية، كان هدفها تحقيق الوحدة السياسية والدينية للشعب العربي. كان يعلم أن تغييرات بعيدة المدى ضرورية في كل مجال من مجالات السياسة الوطنية قبل أن يتحقق حلمه. كانت الوحدة هي سر القوة والازدهار. وقد تعلم ذلك من خلال اتصاله بأمم أخرى. وقد أدى تعامله مع اليهود والمسيحيين إلى تقدير عميق لقيمة الإيمان التوحيدي في توحيد الشعب، وكان مقتنعًا بأن الوحدة السياسية لن تتحقق إلا بوجود وحدة دينية. وببصيرة بارعة، وضع خططه وفقًا لذلك، وبسبب المحافظة الشديدة، اضطر إلى صياغتها في سرية تامة. لسوء الحظ، وبسبب مصادر معلوماته غير الموثوقة، كانت سياسته قائمة على أسس خاطئة. قادته تصوراته المشوهة للحقيقة إلى إنشاء نظام فلسفي ولاهوتي زائف مصمم بحيث لا يسمح بأي تغيير أو تكييف. اعتمد في وضع هذا النظام بشكل كبير على عاداته التأملية، ولا شك أنه فكر فيه كله في عزلة الجبال، التي كان يتقاعد إليها كثيرًا لممارسة بعض العادات الزهدية للوثنيين. وهكذا تبلورت خطته للإصلاح في شكل محدد، وأصبح دعوته إلى المنصب النبوي فكرة ثابتة.

كان متأكدًا من أن النجاح يكمن في الإعلان الحازم عن إله واحد بدلاً من آلهة العرب المتعددة، وكلما فكر أكثر في هذا الكائن، الذي سمع عنه من اليهود والمسيحيين، زادت يقينه. كان الله أعلى وأقوى؛ ولم يكن هناك شك في ذلك. لكن كيفية إقناع الناس كانت صعوبة تتطلب الكثير من التفكير الدقيق والدعاية الحذرة. كان اليهود والمسيحيون يتفاخرون بالأنبياء – الرجال الملهمين للتحدث بصوت الله – لكن العرب لم يكن لديهم أحد يتحدث بهذه السلطة. لماذا تم إهمالهم إلى هذا الحد؟ من المؤكد أنهم كانوا بحاجة إلى سماع الصوت الإلهي، ولم تكن هذه الحاجة أكبر من الآن، حيث كان كل شيء في حالة من الاضطراب والانقسام. أين كان الرجل الذي سيشغل هذا المنصب؟ من سيكون على استعداد لمواجهة الصعاب، ويعلن ضد الشر بإعلان الخير والحق؟ لا بد أن هذه كانت الأسئلة التي شغلت ذهن محمد. ثم جاءت الفكرة – "لماذا لا أكون أنا الرسول؟" ونمت هذه الفكرة في ذهنه حتى أصبح مقتنعًا بـ "دعوته". جعلته هذه الفكرة صادقًا في هدفه في البداية، ولكن بعد أن انقلب التيار لصالحه، شوهت تلك الصدق — بل طغت عليه — فكرة متضخمة عن

أهمية الذات، وطموحًا مستهلكًا خضعت له كل الفضائل والمشاعر الطيبة، حتى تمكن في النهاية، بغطرسة فائقة، من وضع اسمه في مصاف الإله، وجعل اعترافه بمطالبته مهمًا بقدر اعترافه بوحدة الله. وهنا يتجلى تناقضه وزيفه بشكل واضح، لأن الاعتراف بالوحدانية لا يكفي دون الاعتراف برسالة محمد!

تميل الممارسات الزهدية إلى التسبب في اضطرابات جسدية، والتي عادة ما تزعج العقل وتؤدي إلى اضطراب عقلي وأخلاقي. يتشوه الحكم لأن وظائف العقل تخرج عن مسارها. تعمل الأقسام المختلفة للوعي بشكل عشوائي وغير منضبط، مما يؤدي إلى تفسير الأوهام والرؤى الخيالية على أنها حقائق، مما يؤدي إلى التضليل والخداع. وهكذا يمكن تفسير زيارة الملاك جبريل لمحمد، ولكن من الصعب تصور أن ذلك يفسر الطريقة المبتكرة للوحي الذي تلقاه. يعتقد بعض الناس أنه كان بإلهام من الشيطان؛ ويجب أن يظل ذلك موضع تكهنات.

لم تكن ضرورة الوحي التدريجي واضحة للنبي في ذلك الوقت. ولكن يمكننا أن ننسب إليه الفضل في سياسة النسخ التي اتبعها لاحقًا، لأن هذه السياسة كانت ضرورية لتمكينه من تغطية أو تبرير أفعاله التي اتسمت بالتناقض، مثل أفعال أفضل الرجال.

الرد

- **ادعاء :** أن محمدًا ﷺ كان "زعيمًا لمنظمة سرية" تهدف للوحدة السياسية.

هذه الفرضية تفتقر تماماً إلى أي دليل تاريخي. مكة كانت مجتمعاً مكشوفاً وصغيراً، ولم يسجل التاريخ (سواء في التراث الإسلامي أو في مرويات الخصوم) وجود أي تنظيم سري للنبي قبل سن الأربعين.

- **التناقض** :لو كان الهدف "وحدة سياسية"، لكان من الأسهل للنبي ﷺ قبول عرض سادة قريش حين عرضوا عليه الملك والمال مقابل الصمت. اختيار طريق "التوحيد" كان أصعب وسيلة لتحقيق وحدة سياسية، لأنه فرق بين الأب وابنه وشتت شمل القبائل في البداية.

- **ادعاء** : أن التوحيد كان "أداة سياسية" تعلمها من مخالطته لأهل الكتاب.

الإسلام لم يأتِ بنسخة مكررة عن اليهودية أو المسيحية، بل جاء مصححاً لهما في قضايا جوهرية (مثل بنوة المسيح، وطبيعة الإله، والتشريعات). لو كان الأمر "نظاماً فلسفياً زائفاً" مقتبساً، لما استطاع الصمود والانتشار أمام علماء اليهود والنصارى في ذلك الوقت، الذين دخل كثير منهم في الإسلام لإدراكهم أصالة النص القرآني.

التفسير النفسي والطبي (نوبات الصرع أو الأوهام)

- **ادعاء** : أن الوحي نتيجة "اضطرابات جسدية" أو "أوهام" ناتجة عن الزهد.

هذه نظرية قديمة (نقدها المستشرق مونتغمري وات نفسه). "الصرع" أو "الاضطراب العقلي" يؤدي إلى تدهور القوى الذهنية واختلال السلوك. بينما نجد أن النبي ﷺ بعد "الارتحال الروحي" في الغار، أصبح أكثر حكمة، وقاد جيوشاً، ووضع دستوراً للدولة (وثيقة المدينة)، وأدار أزمات سياسية واجتماعية معقدة. العقل "المضطرب" لا يبني أمة تدوم 1400 عام.

- **الوحي** :القرآن نص لغوي معجز وتحدٍّ بياني، ولا يمكن لعقل غارق في الأوهام أن ينتج نصاً يتسم بهذا الإحكام اللغوي والتشريعي.

مسألة "تضخم الذات" والشهادة

- **ادعاء** : أن وضع اسمه بجانب اسم الله (في الشهادة) هو "غطرسة" وزيف.

في العقيدة الإسلامية، اقتران الاسمين ليس للمساواة (حاشا لله)، بل لبيان "المصدر" و"الرسول". "لا إله إلا الله" هي العقيدة، و"محمد رسول الله" هي الطريقة الموصلة لتطبيق هذه العقيدة. النبي ﷺ كان يقول دائماً" :**إنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا عبد الله ورسوله"**، وكان ينهى عن إطرائه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. هذا يتناقض تماماً مع تهمة "الغطرسة."

سياسة "النسخ" في القرآن

- ادعاء: أن النسخ كان "تغطية للتناقضات" وتبريراً للأفعال.

علم "الناسخ والمنسوخ" في الإسلام يُفهم كمنهج **"تدرج تشريعي** ."المجتمع كان ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام، فكان من الحكمة الربانية التدرج في الأحكام (مثل تدرج تحريم الخمر). هذا ليس تناقضاً بل هو قمة "المرونة التشريعية" التي تراعي تطور المجتمع من حالة الضعف في مكة إلى حالة الدولة في المدينة.

ثالثاً - ولادة المجتمع الإسلامي

واقتناعاً منه بدعوته، بدأ محمد، بحذره المعهود، في نشر مبادئه، واكتفى لسنوات بالتعامل سراً مع الأفراد، بدءاً بأفراد أسرته. واعترفت زوجته بدعواه وشجعته، وتجمع حوله تدريجياً عدد متزايد من الأتباع المخلصين، كان بعضهم أكثر ثقة به وبادعاءاته منه نفسه. وكان هذا صحيحًا بشكل خاص بالنسبة لأبي بكر، التاجر الثري والشهير في مكة، الذي اعترف بدعوات النبي وتبعه بطاعة مطلقة وتفاني لا يتزعزع. وألقى بنفسه بكل إخلاص في عمل الدعوة، وكان التقدم في الأيام الأولى، على الرغم من بطئه، يرجع إلى حد كبير إلى طاقته التي لا تعرف الكلل.

مع زيادة عدد أعضاء المجتمع الجديد، تم وضع قواعد تستند إلى "الوحي" الذي كان محمد يتلقاه الآن بشكل دوري، وأُجبر كل عضو على الالتزام بأشد القواعد صرامة. تم إدانة عبادة الأصنام بشدة وتأكيد وحدة الله بشكل قاطع. تم فرض بعض القوانين الدينية اليهودية والمسيحية كشرط للعضوية، بينما طُلب الولاء المطلق للنبي. مُنح الأعضاء ترخيصًا لممارسة الطقوس والشعائر الوثنية القديمة ظاهريًا، حتى لا يثيروا الشكوك، ولكن وجود مثل هذه الجماعة، على الرغم من كل الاحتياطات، لم يدم طويلاً دون أن يلاحظه أحد، وحان الوقت الذي اضطر فيه النبي وأتباعه إلى الإعلان عن إيمانهم. تبع ذلك اضطهاد، عانى منه الأعضاء الأكثر فقرًا أكثر من إخوانهم الأكثر ثراءً. حظي محمد نفسه بحماية زعيم عشيرته، وواصل حملة كلمات لمدة ثماني أو عشر سنوات. يشبه مارغوليوث، في سيرته عن محمد، النبي بلاعب في لعبة ورق، يحصل على أوراق جيدة، ويلعبها بمهارة فائقة. استغل كل فرصة لتعزيز موقعه، ووضع سياسة واضحة أمامه، وخضع كل شيء لتعزيزها. كان داعية قويًا، ولكن بسبب مزاجه الذي لا يمكن السيطرة عليه، لم يكن ناجحًا في المناظرات؛ ومن ثم أنتج "وحيًا" يمنعه من الانخراط في الجدل العام! أظهر اجتهادًا كبيرًا في البحث عن المعلومات التي مكنته من إنتاج وحيه بأسلوب يتوافق مع ادعاءاته. ولأنه كان يعتمد كليًا على الإشاعات، لم يحصل إلا على رواية مشوهة للغاية عن الحقيقة. القرآن مليء بالأخطاء الفادحة، التي حيرت عبقرية العلماء المسلمين لقرون. ومع ذلك، ادعى النبي بوقاحة أن "وحيه" هو الأخير والأهم والأكثر موثوقية، وأن الاختلافات الظاهرة كانت بسبب تحريف نصوص "الوحي" السابق، أي الكتب المقدسة العبرية والمسيحية!

من الواضح أنه كان في حيرة شديدة من الانقسامات والخلافات التي كانت موجودة داخل الكنيسة المسيحية، واعتبر أن الصور والرسوم التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت لم تكن أفضل بكثير من أصنام قومه. وبما أنه لم يكن لديه أي وسيلة لاختبار ومعرفة صحة معرفته، فقد قبل كل ما كان من شأنه تعزيز مكانته، ويبدو أن أكبر ما كان يندم عليه هو عدم قدرته، ردًا على سخرية أعدائه، على الإشارة إلى أي عنصر خارق في مسيرته. في الوحي، كان يعبر في كثير من الأحيان عن آراء ووجهات نظر تتعارض تمامًا مع ما كان قد صرح به سابقًا، وعندما تم تحديه بشأن تناقضه، دافع عن ذلك بالادعاء أنه ليس هو الذي غير رأيه، بل الله، الذي لا يمكن لأحد أن يشكك في طرقه أو يفهمها!

بمرور الوقت، أصبح موقف الطائفة الجديدة لا يطاق لدرجة أن الكثيرين اضطروا إلى الفرار، وذهب عدد منهم إلى الحبشة، حيث استقبلوا استقبالاً حسناً. أما محمد نفسه، فبفضل حماية أقاربه، كان لا يزال قادراً على البقاء في مكة. على الرغم من المعارضة، ازداد نفوذه تدريجياً، وتعزز بشكل كبير باعتناق عمر، وهو مواطن مشهور بمهارته في الاستراتيجية العسكرية وشجاعته. بعد ذلك بوقت قصير، توفيت خديجة، زوجة النبي. كانت لها تأثير قوي وصحي على زوجها، وكانت تشجعه في أوقات الإحباط والفشل. يدين الإسلام بالكثير لحياتها وتأثيرها، ولو كان ذلك معروفًا على نطاق أوسع، لربما أدى ذلك إلى تحسين وضع الفتيات الفقيرات التعيسات في هذا النظام، اللواتي يتم استعبادهن وإهانتهن إلى درجة محزنة. بعد وفاة خديجة، استغل محمد إلى أقصى حد عقوبات تعدد الزوجات في الوثنية، بل وأساء استخدام هذا الامتياز عندما تعارض مع ميوله الخاصة. يحاول مارغوليوث الدفاع عن الزيجات المتعددة على أساس المصلحة السياسية، وهو ما يمكن قبوله في حالات قليلة فقط. في معظم الحالات، كانت هذه الزيجات بسبب الرغبة الأنانية والمودة المفرطة.

وينطبق هذا بشكل خاص على زواج النبي من زوجة ابنه بالتبني، والذي كان انتهاكًا صارخًا للقانون العربي.

عند وفاة حاميه، اضطر محمد إلى البحث عن ملاذ في مكان آخر، ولكن ليس قبل أن يقدم تنازلات متناقضة لقادة الوثنيين. في هذه التنازلات، تراجع تمامًا عن الموقف القوي المناهض للأصنام الذي كان يتبناه حتى ذلك الحين، وذهب إلى حد إصدار وحي يدعي التوفيق بين الإله الواحد الحقيقي وآلهة الوثنيين. هذا التنازل، مهما بدا حكيماً ودبلوماسياً، يشير بوضوح إلى زيف ادعاء محمد، ويمكّننا من تقدير قيمة ادعاءاته. وقد أدان

العديد من أتباعه هذا التصرف بشدة، وربما تحت تأثير رأيهم، أصدر وحيًا اعتذاريًا يلغي التنازل ويعترف بأنه كان خطأ!

حاول الهروب من الاضطهاد في مكة باللجوء إلى الطائف، ولكنه عومل معاملة سيئة هناك عندما عُرفت آراؤه، لدرجة أنه كان سعيدًا بالعودة، وبعد أن وعد بتحديد جهوده التبشيرية للأجانب، سُمح له بالبقاء تحت حماية أحد كبار المواطنين. واصل عمله بين الأجانب بنجاح كبير، لدرجة أنه في غضون فترة وجيزة نمت جماعة قوية في مدينة المدينة المنورة. ويمكن تفسير الزيادة السريعة في عدد أتباعه في هذه المنطقة بالوضع غير المستقر للغاية في المكان. فقد تفاقمت الصراعات المدنية والدينية لفترة طويلة بسبب الموقف العدواني لجزء كبير من اليهود، بحيث أصبحت الظروف أكثر ملاءمة لاستقبال الإسلام ونموه مقارنة بمكة، حيث كان التنظيم أكثر سلامًا، وحيث جعل وجود الكعبة القديمة، أو مسكن الآلهة، الناس أكثر غيرة على دينهم القديم.

في تعيين رجل لقيادة المجتمع الجديد، أظهر محمد بصيرته المميزة في قدرات الرجال. اختار تابعًا مقتنعًا تمامًا بادعاءات سيده، كان حماسه في الأيام الأولى قد دفعه إلى التخلي عن أصدقائه وعائلته والهروب إلى الحبشة — رجل مليء بالحماس والطاقة. في وقت قصير نسبيًا، أصبح الدين الجديد شائعًا جدًا، وأصبح عبادة الأصنام محتقرة. تظهر حادثة تدل على التقدم المحرز في زيارة سبعين من تلاميذ المدينة إلى محمد في مكة. التقوا به سراً في الجبال، ليلاً، وأدوا قسم الولاء الرسمي والملزم، حيث وعدوا "بمحاربة الرجال من جميع الأعراق للدفاع عن العقيدة". من المحتمل جداً أن النبي دُعي في هذا الاجتماع للانضمام إليهم في المدينة، لكنه فضل في الوقت الحالي البقاء في مسقط رأسه.

بطريقة ما، تسربت قصة الاجتماع الليلي، مما أدى إلى تضاعف الاضطهاد، واضطر العديد من الأتباع الأقل ثراءً إلى الفرار إلى المدينة. هناك، حظوا باستقبال حار ورعاية، ثم تم تكريمهم بعد ذلك بتسميتهم "اللاجئين"، بينما تم تكريم من استقبلهم بالمثل بتسميتهم "المساعدين". وهكذا بدأت أخوة المؤمنين التي أصر عليها محمد تتخذ شكلاً عملياً، وتوحد رجال من قبائل مختلفة في رابطة مشتركة واحدة — أخوة قوية لدرجة أن أعداءها في مكة شعروا بالقلق. لم يعدوا يتعاملون مع رجل يمكن ازدراء آرائه. كانوا مهددين بقوة متنامية تهدد بالسحق. اتُخذت خطوات لإزالة الخطر، ووُضعت ترتيبات دقيقة لاغتيال النبي. لكنه حصل بطريقة ما على معلومات عن المؤامرة، وهرب من القتلة المحتملين، الذين جاءوا وهو يفترض أنه في فراشه، بتسلق

نافذة. برفقة أبو بكر المخلص وبعض أتباعه المقربين، توجه إلى إحدى كهوف الجبال، حيث مكث حتى زال الخطر المباشر. ثم بدأت المجموعة الصغيرة رحلتها إلى المدينة المنورة، وهي مهمة محفوفة بالمخاطر والمصاعب لدرجة أن محمد تردد في القيام بها، على الرغم من شر مكتي، ولم يضطر إلى محاولتها إلا بضغط من أصدقائه.

الحقائق المتعلقة بدخوله المدينة المنورة غامضة وغير مؤكدة، ولكن لا شك في أن وصوله قوبل بالبهجة من قبل "المساعدين" واللاجئين". قُدمت له الضيافة بسخاء، ولكنه، بسبب روحه المستقلة، قبلها على مضض. كان من أوائل ما فعله بعد وصوله هو توحيد قواه من خلال تقوية الأخوة، وجعل الالتزامات بين أتباعه وبينه أكثر إلزامًا من روابط الدم.

الرد

يصور المستشرق هربرت: النبي ﷺ كلاعب ورق محترف (بتعبير مارجليوث) يستغل الفرص.

نقول: لو كان الهدف سياسياً أو شخصياً، لما اختار النبي ﷺ أصعب الطرق. عرضت عليه قريش الملك والمال والجاه في بداية الدعوة مقابل ترك دينه، فرفض. "لاعب الورق" يبحث عن المكسب السريع، بينما قاسى النبي ﷺ وأصحابه الحصار والجوع والتعذيب لثلاثة عشر عاماً في مكة. العبقرية السياسية لا تفسر الصمود أمام الموت والتضحية بكل شيء من أجل فكرة "مجردة" لو لم تكن إيماناً مطلقاً بصدق الوحي.

يزعم النص أن القرآن نتاج "إشاعات" مشوهة عن الكتب السابقة.

القرآن الكريم لم يأتِ ليوافق الهوى الكتابي، بل جاء "مهيمناً". الاختلافات بين القرآن والكتب السابقة (مثل قضية صلب المسيح أو طبيعة الأنبياء) ليست "أخطاء"، بل هي تصحيحات عقدية قدمها الإسلام. لو كان النبي ﷺ ينقل عنهم، لملأهم ليتبعوه، لكنه خالفهم في أصول عقائدهم مما ألبهم عليه. أما "الأخطاء الفادحة" التي يزعمها المستشرقون، فهي غالباً نابعة من قياس القرآن بمقاييس التوراة، بينما القرآن يقدم رؤية كونية وتاريخية مستقلة.

يصور "النسخ" (إلغاء حكم بآخر) على أنه تراجع شخصي أو حيرة النسخ في الإسلام هو منهج "تربوي وتشريعي" يتدرج بالأمة. فالمجتمع الذي انتقل من الوثنية إلى التوحيد، ومن الفوضى إلى النظام، كان يحتاج لسياسة الحكيم الذي يفرض الأحكام شيئاً فشيئاً (مثل تحريم الخمر). هذا ليس تردداً، بل هو قمة الحكمة في بناء المجتمعات.

قصة "الغرانيق" (التنازل للمشركين) أشار إلى أن النبي ﷺ قدم تنازلات بمدح آلهة المشركين ثم تراجع، وهذه القصة (المعروفة بقصة الغرانيق) هي من الناحية الحديثية "باطلة" وسندها ضعيف جداً ولا تصح. ومن الناحية العقلية، هي تتناقض مع جوهر دعوة النبي ﷺ التي قامت أصلاً على هدم الأوثان. لم يقدم النبي ﷺ أي تنازل عقدي طوال حياته، ولو فعل، لانتهت الخصومة مع قريش منذ اليوم الأول، وللشيخ الألباني رحمه الله كتاب اسمه "*نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق*".

تعدد الزوجات وزواج السيدة زينب بنت جحش ويرجع زيجات النبي ﷺ إلى "الرغبة الأنانية." وهذا الطرح يغفل السياق الاجتماعي والتشريعي. وذكر ابن القيم أن من حكم تعدد الزوجات أن ينقلن للأمة ما لا يطلع عليه الرجال من أحواله في بيته، وعبادته، وغسله، وشؤونه الخاصة، لتكتمل الشريعة. ويشير إلى أن وجود عدد من الزوجات بذكاء وقدرات متفاوتة (مثل السيدة عائشة رضي الله عنها) جعل العلم ينتشر بين النساء والرجال على حد سواء، ..ومنها: أن يصاهر القبائل، فيتألف قلوبهم به، ويصير بينهم وبينه من المودة والمواصلة ما كان سبباً لإسلامهم"... والإمام الطبري (ت 310 هـ): أشار في تفسيره إلى أن زواج النبي ﷺ كان بأمر الله لتثبيت الأحكام، خاصة في قصة زينب بنت جحش، قائلاً: "إن الله زوّجه إياها ليعلم الناس أن زواج زوجة الدعيّ (الابن بالتبني) حلال، فكان فعله ﷺ قطعاً لكل ريبة".

شخصية النبي ﷺ (الغضب والمناظرة) يقول: إنه كان "غير ناجح في المناظرة" بسبب مزاجه، التاريخ يشهد للنبي ﷺ برباطة جأش غير مسبوقة. وصفه أعداؤه قبل أصدقائه بـ "الصادق الأمين". الحوارات القرآنية (مثل حوارات إبراهيم عليه السلام، أو الرد على شبهات البعث) هي قمة في المنطق العقلي. أما تجنب "الجدل المذموم"، فهو منهج قرآني للترفع عن اللدد في الخصومة وليس عجزاً. **وهناك العديد من الكتب التي ذكرت حوار النبوي أهمها:**

"**الحوار في السيرة النبوية**" للدكتور محمد بن راشد الشرقي: يُعد من المراجع الشاملة التي تحلل أساليب النبي في الإقناع والتعامل مع المخالفين والموافقين.

"**أدب الحوار في السيرة النبوية**" للدكتور فوزي خليل: يركز هذا الكتاب على القواعد الأخلاقية والجمالية التي كان يتبعها النبي ﷺ في نقاشاته.

"**أسلوب الحوار في السيرة النبوية**" للكاتب سعيد بن علي بن وهف القحطاني: كتاب ميسر يستعرض نماذج تطبيقية من حوارات النبي مع مختلف الفئات (الأعراب، النساء، أهل الكتاب، والمشركين).

رابعًا: النمو والتقدم

وجد نفسه الآن رئيسًا معترفًا به لجماعة كبيرة متنامية، تتطلع إليه طلبًا للإرشاد في جميع شؤونها – الدينية والاجتماعية والسياسية. وبفخر، وباستبداد شرقي حقيقي، تولى مناصب النبي والكاهن والملك. لم يكن بحاجة إلى أحد ليشاركه هذه الوظائف. كان له الحق المطلق – له وحده. كانت طموحاته تتحقق. لقد كوفئت سنوات من الكفاح، وخيبات الأمل، والشكوك، والمخاوف التي عذبته، ويمكن نسيانها في البريق الذي يحيط به الآن. احتشد حوله أتباع متحمسون ومتعصبون، يهتفون له بالولاء. مدللًا ومُغدقًا عليه بإطراء مفرط، فهل من عجب أن راودته رؤى للسلطة لم تكن تخطر على باله من قبل؟ تضاءلت خطته للإصلاح الوطني أمام هذا الواقع. رأى نفسه قائدًا لغزو عالمي، ومروجًا لمشروع إصلاح شامل عظيم. لم يكن مجرد رسول للعرب، بل ناطقًا باسم الله للعالم أجمع. وبقوة إلهية، كان سينال الخضوع التام من الأمم العظيمة، التي سيخضع لها ملوكها المتغطرسون خضوعًا تامًا لإرادته الجبارة! كانت له البصيرة النبوية، والسلطة الملكية، والإدارة القضائية، بحق إلهي، يُفرضها، إن لزم الأمر، بسيف الإسلام.

ومع تحسن مكانته، تدهورت مُثله. فقد طغى طمع السلطة الدنيوية على تقواه المبكرة. وبدلًا من أساليب الدعوة السلمية الصبورة، انتهج سياسة قاسية لا ترحم، حربية، ولم يمضِ وقت طويل – ربما بسبب الفقر المدقع الذي ألمّ بالمجتمع الجديد – حتى أصبح النبي المزعوم قائدًا لجيش من اللصوص. مع ذلك، ورغم كل ما أحاط به من بريق، والسلوك المشكوك فيه الذي اتسمت به تلك الفترة من حياته، فإننا نلمح بين الحين والآخر ما يكشف عن دوافع نبيلة في عقله. لو كانت بيئته مختلفة، لكان محمد بطلاً في تاريخ العالم. قاده جهله بالحق إلى الوقوع تحت وطأة الوهم. أنتجت عزلته في الغار ما دفعه إلى العبودية. كان أسير فكرة زائفة، استحوذت عليه لدرجة أنه اندفع قُدماً، رغم كل ما اعترض طريقه، خيراً كان أم شراً. مارست هذه الفكرة تأثيراً لا يُقاوم على جميع دوافعه، فدفعته إلى أفعال لا تُبرر. عندما فشلت الوسائل المشروعة، لجأ إلى الوسائل غير المشروعة، فنجح نجاحاً فاق توقعاته.

بُني أول مسجد، أو مكان اجتماع، بعد وصوله إلى المدينة المنورة بفترة وجيزة، وبدأ مهامه الدينية. كسياسة عامة، تبنى النبي العديد من الطقوس اليهودية. إلا أنه سرعان ما غيّرها، فمع ازدياد أتباعه وازدياد استقلاليته عن المعونة اليهودية، بذل قصارى جهده لإظهار نفوره الفطري من أهل القدس، الذين استهزأوا بادعاءاته

النبوية. فبدلاً من الصلاة باتجاه القدس، أُمر أتباعه بالتوجه نحو مكة. وأُلغي صيام يوم الغفران لصالح شهر رمضان، واستُبدلت طقوس التضحية اليهودية بذبح الأضاحي الوثنية.

يُلاحظ فرقٌ كبير بين "الوحي" في هذه الفترة ووحي مكة. فقد انصبّ الأخير على التنديد بالوثنية، وإثبات وحدانية الله وصفاته، وروايات أسطورية، وصورٍ مُرعبةٍ أحيانًا للجنة والنار. أما الأول، فكان في الغالب ذا طابع تشريعي، ممزوجًا بشؤون النبي الداخلية، وتوجيهاتٍ لسياسته العسكرية. يبدو أن طريقة تدوينها قد وُضعت وفق نظام محدد، إذ من المؤكد أن مجموعة من الكُتّاب المحترفين انخرطوا في هذا العمل، وتتعدد الأدلة التي تُشير إلى أن هؤلاء الكُتّاب سُمح لهم بالتعبير عن الوحي بأسلوبهم الخاص. وقد كثرت التناقضات والاختلافات، لكن يبدو أن محمدًا قد أقرّ بأنه غير مسؤول عنها، وصرح بأن لله الحق الكامل في التغيير كما يشاء، بل والاعتذار عن الأخطاء! وتستند سياسة النسخ إلى النص: "مهما نسهنا من الآيات أو أنسيناكم، نعطيكم خيرًا منها أو مثلها" في سياسته الحربية، عكست استراتيجية النبي صورةً مشوهةً لشخصيته، إذ ضحّى بكل ما هو نبيل وفاضل في سبيل شهوة الغزو. عندما احتاج إلى العون، تظاهر بالصداقة مع من يكرههم، ثم ما إن اشتدّ به المقام حتى استقلّ، حتى لم يتردد، عند أدنى استفزاز أو ذريعة، في توجيه سيفه ضدهم. وينطبق هذا بشكل خاص على معاملته لليهود، الذين صادقهم في البداية، ثم عاملهم بظلمٍ وحشيٍّ بعد ذلك.

بعد أشهر قليلة من وصولهم إلى المدينة المنورة، برزت الحاجة إلى وسيلة دعم أخرى غير صدقات المعينين. كان عدد اللاجئين لا يزال في ازدياد، وتجاوز الطلب على الضروريات الأساسية للحياة العرض المتاح. ولحسن حظ محمد، فقد شارك أتباعه معاناتهم، وأثبت كرمه حتى في أوقات الشدة. ولتلبية هذه الحاجة، وُضعت خطة لنهب قوافل مكة الثرية، ونُفّذت بنجاحٍ نسبيّ. أبدى النبي في البداية نفورًا من هذا النوع من الحرب، لا سيما عند انتهاك الأحكام السلمية القديمة لبعض الأشهر الحرم. لكن فوائد الإيرادات المتراكمة دفعته، بعد حين، إلى إصدار وحي يُجيز الأعمال العدائية حتى في الأشهر الحرم. وقد وفرت النجاحات المبكرة للمجتمع ثروةً فائضة، وأثارت جشع كثير من معارضي النبي، فدفعتهم إلى الانضمام إليه. وبعد أن أفسد ضميره بإقراره بصواب سياسة النهب، كان من السهل عليه أن يُقنع نفسه بأن كل ذلك جزء من مشيئة الله لنجاح مطالبه. فكل من لم يعترف به كان عدوًا لله، لا حق له في الملكية ولا في الحياة. فبدأ يُبشر بقدسية الحرب ضد كل من كفر. أشعل محمد نار الحماس الديني في قلوب أتباعه المتعصبين، فصاروا جنودًا

محاربين، وكانت وفاتهم في ساحة المعركة شهادة مجيدة، تُدخلهم مباشرةً إلى جنة تُشبع فيها جميع رغباتهم بلا حدود. فلا عجب أن جيشًا من هؤلاء الرجال استطاع أن يُجبر ثلاثة أضعاف عددهم من أهل مكة الأقل حماسًا على الفرار. وهذا ما حدث بالفعل في غزوة بدر. فقد تلقى محمد نبأ إمكانية الاستيلاء على قافلة مكة الثرية، فقرر خوض هذه المحاولة. ووصلت أنباء خططه إلى أهل مكة، الذين عزموا على إحباط مخططات عدوهم إن أمكن. فتم تنظيم ألف رجل بسرعة في قوة دفاعية وعقابية، وأُرسلوا لسحق ثلاثمائة مسلم. لم يكونوا بارعين في الاستراتيجية العسكرية، بل كانوا أشبه بحشدٍ غير منظم؛ بينما أظهر المسلمون، تحت قيادة محمد الحكيمة، تنظيمًا بارعًا. قيل إنّ شعائر الصلاة الصارمة التي فرضها محمد، مُخاطرًا بالعقاب الإلهي، كان لها أثرٌ تأديبي، وأثمرت نتائجَ تُشبه إلى حدٍّ كبير نتائجَ التدريبات العسكرية. فقد فرّ جيش مكة، وكان الانضباط وثبات العزم هما مفتاح النصر. وعاد المسلمون إلى المدينة المنورة منتصرين، حاملين معهم العديد من الأسرى وغنائمَ وفيرة. ويتحدث الوحي الذي نزل بعد ذلك عن ذلك اليوم بـ"يوم الخلاص"، وقد ابتهج محمدٌ لأنّ وصمة العجز عن إظهار أيّ دليل على معجزة في حياته قد زالت، إذ يُعزي النصر إلى تدخّلٍ إلهي مباشر لصالحه. وكان أثر النصر على القبائل المجاورة إيجابيًا للغاية بالنسبة للنبي. فقد سعى العديد من الزعماء إلى التحالف معه، لكنّه لم يقبل عروضهم إلا بشرط اعتناقهم الإسلام. ولم يقبل إلا القليل، وسرعان ما ندم من رفض.

بعد انتصاره بعام تقريبًا، ازداد نفوذه وسلطانه حتى استمال جميع القبائل الواقعة بين مكة والمدينة. ثم حلّت الهزيمة. كان أهل مكة يكتمون مرارة الهزيمة، وبعد أكثر من عامين بقليل من غزوة بدر، انفجرت هذه المرارة في حملة ضد محمد. حشد المسلمون قواتهم، وانطلقوا بقيادة النبي لملاقاة أهل مكة. دارت معركة ضارية، كان للمسلمين فيها الأفضلية في البداية، واضطر أهل مكة للفرار. لكنهم استخلصوا دروسًا كثيرة من معركة بدر، ونصبوا بعضًا من فرسانهم في موقعٍ مكّنهم من شنّ هجومٍ على مؤخرة العدو عندما تشتت انتباه المسلمين أثناء مطاردتهم له. استدار أهل مكة الفارين، ووجد المسلمون أنفسهم بين هجومين. ثم انتشر خبر استشهاد محمد! بدلاً من أن يزيد ذلك من اضطراب المسلمين بتثبيط عزيمتهم، دفعهم إلى القتال ببسالة أكبر، إذ كان معظمهم شديدي التمسك بالإسلام لدرجة أنهم لم يكترثوا لحياة نبيهم إن مات. حال هذا دون ما كان سيُعدّ نصراً ساحقاً لأهل مكة، وتمكن عدد منهم، بمن فيهم محمد الذي لم يُصب إلا بجرح، من الانسحاب إلى المدينة. كان أهل مكة راضين تماماً عن النتيجة، إذ مُحيت وصمة هزيمتهم في بدر. لاحقاً، عندما تعافى

محمد من جراحه، ظهر علناً في المسجد، حيث استطاع إقناع أتباعه بأن هزيمتهم الظاهرية كانت في الحقيقة نصراً! إن القائد القادر على إقناع قواته بوجود نصر، حتى في ظل الهزيمة الظاهرية، هو من يُلهمهم القتال ضد احتمالات تبدو مستحيلة. لن يُهزموا أبداً، بل سيواصلون القتال حتى يُبادوا بالأسر أو الموت. يكمن سر النجاح، حتى في أكثر جوانب الحياة سلمية، في هذا المبدأ: الثبات على الحماس رغم الفشل، وإدراك أن الفشل خطوة نحو النجاح النهائي. فليتحلى المرء بهذه الصفات، وسيكون النصر في متناول يده، سواء أدرك ذلك أم لا.

بعد ذلك، لم يتردد محمد في استخدام أسلوب الاغتيال في الحرب، إن صحّ تسميته حربًا. فقد بدأت بعض القبائل، وقد تشجعت بخبر غزو مكة، في معاملة المبعوثين المسلمين بقلة احترام، بل وصل بهم الأمر إلى قتل بعضهم. وردّ محمد بإرسال رجالٍ لتصفية الحسابات بنفس الأسلوب الإجرامي، لا سيما في التعامل مع اليهود. فقد راودته فكرة أن هؤلاء القوم قد عزموا على قتله. هذا، بالإضافة إلى أمور أخرى أقل أهمية سبق ذكرها، أدى في النهاية إلى محاولة منظمة لإخضاعهم. فحُوصِرت قبيلة كبيرة ذات نفوذ، ودُمّرت أشجار نخيلها وأراضيها وممتلكاتها عمدًا. في نهاية المطاف، استسلمت القبيلة بأكملها، وسُرّت بالرحيل بما استطاعت جمالها حمله من متاع. أدى ذلك إلى تحالف قبائل يهودية أخرى، حاصرت المدينة المنورة. لم يُكلل الحصار بالنجاح، وتعرض المحاصرون لمعاملة وحشية. بعد مناوشات ومعارك طاحنة، قُطعت رؤوس عدد من اليهود الذين وقعوا في الأسر، بينما استُعبدت نساؤهم وأطفالهم. أُجبر من رفضوا اعتناق الإسلام على دفع الجزية. وهكذا ضُمنت ازدهار الإسلام ونجاحه. لم يعد اليهود يملكون الجرأة الكافية لإثارة أي قلق لدى النبي بشأن صحة نبوته، ولم يكونوا ممن يُثيرون الخوف بشأن قدراتهم القتالية. كانوا حقًا من نسل إسحاق ويعقوب، اللذين كانا رجلي سلام، ولم يكونوا مؤهلين للنجاح في حرب ضد نسل إسماعيل وعيسو المحاربين.

بعد أن تخلص النبي من كل قلقٍ في هذا الشأن، أدرك أن أمن المدينة المنورة لن يكون مضمونًا ما دام أهل مكة يعارضونه، فبدأ يضع خططًا لفتح مدينتهم. كانت خطوته الأولى محاولة التوفيق بينهم، بهدف إرسال مجموعة من الحجاج إلى المدينة، لكنّ أهلها كانوا حذرين ومتشككين للغاية، ما حال دون ذلك. وفي النهاية، اقتنعوا باستقبال صهره عمر، الذي نجح في إقناع فئة من أهل مكة بظلم منع دخول الهيكل المقدس عن

أولئك الذين، وإن كانوا أعداءهم، فهم في نهاية المطاف أقاربهم. أدى ذلك إلى معاهدة، جلب فيها محمد العار لأتباعه بسبب تنازلاته. نصّت الاتفاقية على أن يسود السلام بين النبي وأهل مكة لعشر سنوات، وأن يُسمح لمجموعة من المسلمين بأداء فريضة الحج إلى الكعبة في غضون عام.

... أثارت الإهانة التي فرضها النبي على أتباعه استياءً شديدًا، لم يهدأ إلا عندما خضع هو نفسه لحلق رأسه وتقديم الأضحية. كان يعلم أن هذه الإهانة تستحق الفائدة المرجوة، بل كانت في الواقع سبيلًا لتحقيق سياسته، التي لا يمكن فيها لأي عمل نافع أن يكون مُشينًا. لم يكن يرى في مثل هذه المعاهدة أي التزام مقدس تجاه أعدائه. فهو نبي الله، وبصفته هذه، فهو مُعفى من أي التزام تجاه من لم يتبعوه، وهو مبدأ راسخ في الإسلام، يجعل انتهاك كل العلاقات الحسنة مع غير المؤمنين أمرًا محمودًا للغاية.

الرد

يزعم أن النبي ﷺ تحول إلى "مستبد شرقي" يستمتع بالبريق والسلطة.

الحقائق التاريخية تقول إن النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل طعام لأهله. كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويدفن أصحابه بيده. أيُّ "مستبد" هذا الذي يرفض أن يُقام له إذا دخل، ويقول: "إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة"؟ البريق الذي يتحدث عنه النص لم يغير من نمط عيشه الزاهد شيئاً، وهذا أكبر دليل على أن دافعه كان الرسالة لا الرئاسة.

يصف الغزوات بأنها "أعمال لصوصية" لتلبية الحاجة المادية.

هذا الطرح يتجاهل أن المهاجرين قد صودرت أموالهم وبيوتهم في مكة بغير حق. في القانون الدولي المعاصر، يُسمى هذا "استرداد الحقوق" أو "المعاملة بالمثل" في حالة الحرب. لم تكن القوافل هدفاً للنهب، بل كانت وسيلة ضغط اقتصادي على قريش التي بدأت العدوان وأخرجت المسلمين من ديارهم.

يصور تغيير القبلة والتشريعات كنوع من "النكاية" أو رد الفعل الشخصي.

تغيير القبلة إلى مكة (الكعبة) كان عودة إلى أصل دين إبراهيم عليه السلام، وهو قرار سيادي إلهي لتميز الأمة الإسلامية بهويتها. أما التعامل مع القبائل اليهودية في المدينة، فلم يكن بسبب "هويتهم"، بل بسبب "نقض العهود" والتحالف مع العدو (قريش) في وقت الحرب. الخيانة العظمى في كل الشرائع قديماً وحديثاً تُقابل بأشد العقوبات.

يدعي أن الوحي المدني "تشريعي جاف" أو "مصالح شخصية."

هذا تطور طبيعي ومنطقي؛ ففي مكة كان التركيز على بناء العقيدة (الأساس)، وفي المدينة كان التركيز على بناء الدولة والمجتمع (البناء). لا يمكن إقامة مجتمع بدون قوانين للزواج، والمواريث، والقضاء، والحرب. هذا لا يعني "تدهور المثل"، بل يعني "تطبيق المثل" في واقع عملي.

يزعم أن النبي ﷺ كان يرى نفسه معفياً من الالتزامات تجاه غير المؤمنين.

هذا ابتعاد تام عن الصواب. في صلح الحديبية، التزم النبي ﷺ ببنود الصلح حتى وهي "مجحفة" في ظاهرها. عندما جاءه الصحابي "أبو جندل" هارباً من قريش ليلحق بالمسلمين، رده النبي ﷺ لقريش وفاءً بالعهد، رغم تألم الصحابة لذلك. الإسلام يقدس العهود لقوله تعالى :﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾.

٦ - محمد والنساء

كان لحياة النبيّ الأسرية تأثيرٌ كبيرٌ على دينه، وتتجلى آثار ذلك في البيت الإسلامي اليوم. فقد أتاحت له زيجاته المتعددة خبرةً أدت إلى صياغة العديد من الأحكام الشرعية المتعلقة بالنساء. وكما سبق ذكره، كان لخديجة، زوجته الأولى، تأثيرٌ كبيرٌ على مسيرته النبوية. فقد كانت تُكنّ له محبةً عميقةً، بادلها إياها إياها بصدق. وكانت تتمتع بشخصيةٍ قويةٍ استطاعت كبح جماح شهواته، والحفاظ على مكانتها في نظره رغم ذلك. وكان تشجيعها ودعمها له، حين كان النجاح والفشل على المحك، دافعًا إياه للمثابرة في تطوير أفكاره. وقد كان وفيًا لها طوال حياتهما الزوجية، ومخلصًا لذكراها بعد وفاتها، ووعدها على فراش الموت بأنها ستشاركه مخدعه بعد رحيله، مع أم عيسى وأخت موسى. وبعد شهرٍ من وفاتها، خُطب لعائشة، وهي طفلةٌ في السابعة من عمرها. لم يتزوجها فعليًا إلا عندما بلغت التاسعة من عمرها، وخلال تلك الفترة، لجأ إلى أرملة كانت مرضعة لإحدى بناته ليخفف من وطأة الأمر. ويبدو أن هذا الزواج كان أقرب إلى المصلحة منه إلى العاطفة، وفيما بعد، لم تستطع عائشة الحفاظ على مكانتها كزوجة إلا بالتنازل عن بعض امتيازاتها لنساء أخريات من حريمه.

بعد سبعة أشهر من وصوله إلى المدينة المنورة، وفي زمن الفقر، تم زواجه من عائشة، حيث زُوجت الطفلة ذات التسع سنوات برجل في الثالثة والخمسين! زواج بُرِّرَ بدوافع سياسية، مما عزز ولاء أبي بكر، والد الطفلة. ويبدو أنها كانت تأتي في المرتبة الثانية بعد خديجة في محبة النبي، وكانت تمارس عليه نوعًا من التسلط، حتى عندما كان ذلك يؤثر على وحيه. وقد أثارت حسد الزوجات الأخريات لما تتمتع به من امتيازات، ورغم المكائد، استطاعت أن تحافظ على مكانتها. كانت عائشة شديدة السخرية من بعض الوحي، بل وتجاوزت ذلك في إحدى المرات إلى السخرية من النبي على أمانته في تدوينه. وقد نبعت هذه السخرية من الغيرة بسبب زواج محمد من زينب، الذي كان زواجًا غير شرعي دفعه إلى إلقاء اللوم على الله. زينب هي زوجة زيد، ابن النبي بالتبني، الذي رأى، بعد أن اكتشف حب أبيه بالتبني، أنه من الحكمة أن يطلقها لصالحه. ويبدو أن الوحي الذي أنزله محمد قد تم تأجيله حتى هدأت ثورته، ومن هنا جاءت السخرية!

أثناء غزوات بني إسرائيل، انزعج محمد كثيرًا من رغبة زوجاته في مرافقته في الغزوات. فخفف من حدة الأمر بترتيب أن ترافقه واحدة فقط في كل غزوة، وأن يتم اختيارها بالقرعة. وقد واجهت عائشة مشكلة في

إحدى هذه الغزوات، حيث أسقطت عقدًا من يديها وبقيت خلف المجموعة العائدة للبحث عنه. عثر عليها شاب كان يتسكع خلفها، ورافقها إلى المخيم. لم يتوانَ أعداؤها عن استغلال هذا الحادث للتشويه سمعتها أمام النبي. تألم النبي بشدة، وأمام غضب الرأي العام، أعادها إلى والديها. ولعلّ تعقيدات الطلاق كانت ستُنفّر والدها، أبا بكر، لذا، وبحكمته المعهودة، أنزل محمد وحيًا يُبرئ عائشة من أي سبب للطلاق! ومن عائشة أيضًا استلهم النبي فكرة الدعاء للنجاة من عذاب القبر، إذ ذكرت ذات يوم أنها سمعت امرأة يهودية تتحدث عن عذاب ما بعد الموت. طوال حياتها مع النبي، أثبتت عائشة أنها قوية الشخصية، وزوجة مثالية لرجل من طراز محمد.

لم تلعب الزوجات الأخريات دورًا بارزًا في حياة النبي. ويبدو أنه كان يُظهر ذوقه الرفيع في الجمال في جميع اختياراته. كانت كويد ابنة رجل ذي ثروة ونفوذ كبيرين، ومثل زينب، كانت من اللاجئات الحبشيات. في الحملة على خيبة، أثار طمع محمد رؤية بعض الحلي الثمينة التي تعود لأحد أعدائه المهزومين. فسعى إلى امتلاكها بالزواج من ابنة مالكها، صفية، التي قُتل زوجها وشقيقها في تلك المعركة. قبلت صفية عرض النبي، ورضيت بخسائرها في نزاعات حريمه. أما زوجاته الأخريات فهن جويرجة، وحفصة، وأم سلمة، وأم كبيبة، وهي أيضًا من اللاجئات الحبشيات، وزينب، أرملة ابن عمه. وكانت زوجته الأخيرة ميمونة، التي يُقال إنها عرضت نفسها عليه عندما كان يفكر في غزو مكة. أُضيفت إلى الحريم جارية قبطية (مسيحية) تُدعى مريم، وريحانة، وهي يهودية، لكنهما لم تتزوجا زواجًا رسميًا.

لا يُتوقع أن تسير الأمور بسلاسة دائمًا مع وجود هذا العدد الكبير من النساء اللواتي يتمتعن بحق الاهتمام به، وهناك أدلة كثيرة تُشير إلى أن محمدًا كان يُعاني غالبًا من صعوبة إرضاء الجميع. وقد أدت علاقته بالنساء، كما هو متوقع، إلى تدني مكانتهن، ومن هنا جاء التدهور الشديد الذي يتعرضن له في الإسلام.

ورغم أنه لم يمارس ضرب الزوجات، إلا أنه أجازه. وسُهّل الطلاق على الرجال، الذين كان بإمكانهم التخلص من زوجاتهم متى شاؤوا. لذا، أصبح من الشائع اليوم أن تسرق النساء من أزواجهن لتوفير احتياجاتهن في حال الطلاق. إن شر هذا النظام واضح، فهو يجعل النساء مجرد جواري تحت رحمة أهواء أزواجهن. وقد أدى تعدد الزوجات وإقامة السرائر، المُجاز في القرآن، إلى تدهور مكانة المرأة إلى درجة لا تُصدق، وبالتأكيد لم يُلغِ، كما يزعم بعض العلماء، شرورًا أخرى. صحيحٌ أنه حسّن قليلاً من وضع المرأة في عصره، مانحاً إياها

امتيازاتٍ لم تكن تتمتع بها من قبل، ومن يحاولون تصويره كبطلٍ، يُغطّون عجزه عن الوصول إلى تقييمٍ دقيقٍ لوضع المرأة بالقول إنه كان من المستحيل عليه معالجة مشكلةٍ ميؤوسٍ منها. من المُشجّع أن نعلم أنه مع تزايد نفوذ الحضارة المسيحية الغربية، يتحسن وضع المرأة في بلاد المسلمين تدريجياً، على الرغم من أن أهل القرى ما زالوا يروننا ضعيفات الشخصية لأننا نتصرف معهم بلطف. في مصر، يجري إنشاء مدارس حكومية للبنات، وينتشر التعليم في جميع أنحاء العالم الإسلامي. دين محمد واضحٌ جليّ لدرجة أنه لا يمكن إصلاحه. الأمل الوحيد للأمم الخاضعة له هو أن يؤدي تقدم الحضارة الغربية إلى الخضوع لنفوذ المسيحية. لا يُمكن التمتع بنعم الغرب بينما يُستعبد الرجال بدينٍ شرقيٍّ غير مُتقدم.

قبيل وفاته، نظم محمد حملة ضد الرومان، رغم مرضه الذي لازمه حتى وفاته. كان قد أدى فريضة الحج الأخيرة إلى مكة، وألقى ما يمكن اعتباره وصيته الأخيرة لأتباعه. ويبدو أن نبرة خطابه تأثرت بفكرة قرب الموت. فقد شدد على المبادئ التي غرسها، مبيناً أن الأخوة الإسلامية تزيل كل ما يؤدي إلى عدم المساواة الاجتماعية. فالغني ليس أفضل حالاً من الفقير، والنبيل الذي يتباهى بنسبه ليس أهم عند الله من أدنى متسول. والفرق الوحيد بين الناس هو درجة التقوى. وأقر بحقوق الملكية للمؤمنين، وألمح بوضوح إلى أن غير المؤمنين لا يملكون مثل هذه الحقوق. ودعا إلى احترام المرأة ومعاملتها معاملة إنسانية، وأظهر بلا شك رغبته في أحوال أفضل مما استطاع تحقيقه في حياته. ولعل المرض الذي ألمّ به لاحقاً كان نتيجةً للإجهاد والقلق المصاحبين لهذه الفريضة. اعتنت به عائشة، زوجة الفتاة. الروايات الكثيرة التي رُويت عن تلك الأيام الأخيرة غير موثوقة، لكن من المؤكد أنه ظلّ عاجزًا يهذي لخمسة أيام. في السابع من يونيو عام 632 ميلادي، بعد عشر سنوات من الهجرة من مكة، توفي بين ذراعي عائشة، تاركًا وراءه عملًا ألحق دمارًا بالكنيسة المسيحية لقرون، والذي، مستلهمًا من روحه الخالدة، لا يزال قائمًا في عداوة لا هوادة فيها ضد إيمان الناصري المتواضع، الذي أرضه، بتدبير الله، ملكٌ لابن الإسلام. لن يُسمع بعد اليوم صليل السيوف حين يحاول المسيحيون قهر المسلمين. لقد ولّت تلك الأيام. لا تُجدي الأسلحة المادية نفعًا أمام القوى الروحية. روح يسوع الأبدية المسالمة تتغلغل ببطء ولكن بثبات في ظلام الإسلام. نشهد التفكك الناتج، ونأمل في ذلك اليوم العظيم حين تسجد جيوش الإسلام، بقيادة روح قائدهم المنكسرة والمتواضعة، أمام ملك الملوك، معترفةً بما أُجبرت على إنكاره مع مرور الزمن: وحدانية الثالوث، سرّ الألوهية الذي لم يُكشف بعد.

إن بريطانيا، أعظم قوة إسلامية في العالم، بحاجة إلى تغيير سياستها تجاه العمل التبشيري المسيحي بين المسلمين، إن كانت ترغب في تعزيز رفاهية هؤلاء القوم الضالين. عليها أن تمنح الحرية لرسل الصليب الذين يعملون في بلاد الهلال. ويجب أن ترتفع صلوات شعبها من أجل أبناء وبنات الإسلام الذين يعيشون في ظلام الموت.

الرد

يحتوي النص على أخطاء تاريخية فادحة تدل على عدم دقة المصدر، ومنها:

- **خلط الأسماء :**ذكر النص أسماء غريبة مثل "كويد" (ربما يقصد جويرية) وأخطأ في وصف صفية وزينب بأنهن "لاجئات حبشيات" بينما الحقيقة أن صفية كانت من يهود بني النضير وزينب بنت جحش من قريش.
- **رواية مخدع الموت :**ذكر أن النبي وعد خديجة بمشاركتها المخدع مع مريم ابنة عمران وأخت موسى؛ هذه رواية منكرة وضعيفة جداً في التراث الإسلامي، ولا يصح بناء تحليل تاريخي عليها.

يصور زيجات النبي كأنها نابعة من "الشهوة"، والرد العلمي يدحض ذلك:

- **العمر والظرف :**النبي صلى الله عليه وسلم عاش مع السيدة خديجة (التي كانت أكبر منه سناً) وحدهما لمدة 25 عاماً في عنفوان شبابه. لم يبدأ التعدد إلا بعد وفاتها وهو في سن الخمسين، ومعظم زوجاته كنَّ أرامل أو مطلقات لدوافع متعددة: منها إنسانية، اجتماعية، أو سياسية (تأليف القلوب وبناء التحالفات).
- **قضية السيدة عائشة :**الزواج في ذلك العصر كان يخضع لمعايير اجتماعية وبيولوجية مختلفة تماماً عن عصرنا الحالي. السيدة عائشة لم تكن "ضحية"، بل أصبحت أهم مرجع علمي وفقهي في تاريخ الإسلام، حيث نقلت آلاف الأحاديث، مما يدل على نضجها العقلي والتربوي الذي وفره لها بيت النبوة.

  أشار ابن حجر في "فتح الباري" وفي كتابه "الإصابة" إلى منزلة عائشة العلمية، وكيف أنها كانت

تحفظ الشعر والطب والأنساب بالإضافة للوحي، معتبراً أن اجتماع هذه الصفات فيها في سن مبكرة كان تهيئة لدورها العظيم في نقل الدين.

النص يحاول إعطاء صبغة "درامية" للزواج، **حادثة السيدة زينب بنت جحش**، بينما الحقيقة هي **هدف تشريعي:**

- كان الهدف هو إبطال عادة "التنبي" الجاهلية التي كانت تجعل الابن المتبنى كالابن الصلبي في التحريم. زواج النبي من مطلقة زيد (ابنه بالتبني سابقاً) كان أمراً إلهياً لكسر هذا التقليد الاجتماعي المتجذر ." يقول ابن القيم ما معناه: *أن الله أراد أن يشرع حكماً عاماً للمسلمين بجواز زواج الرجل من زوجة دعيّه (الابن بالتبني) بعد طلاقها، ولم يكن ليجرؤ أحد على كسر هذا العرف الجاهلي الثقيل إلا النبي ﷺ بأمر ربه.*

وضع المرأة في الإسلام مقابل الادعاءات الغربية

- **الحقوق المالية والقانونية** : منح الإسلام المرأة حق الميراث والذمة المالية المستقلة وحق اختيار الزوج والطلاق في وقت كانت فيه القوانين الأوروبية (حتى وقت قريب من كتابة ذلك النص) تعتبر المرأة ملكاً لزوجها ولا يحق لها التملك.

- **التعليم** :الكاتب ينسب الفضل في تعليم البنات للمدارس الاستعمارية، متجاهلاً أن أول جامعة في العالم أسستها امرأة مسلمة (فاطمة الفهري)، وأن التاريخ الإسلامي حافل بالعالمات والفقيهات والشاعرات.

النزعة الاستعمارية في الخاتمة

خاتمة النص تكشف بوضوح عن أجندته؛ فهو يربط بين "التقدم" وبين "الخضوع للمسيحية الغربية"، ويعتبر بريطانيا "قوة إسلامية" كبرى. هذا المنطق هو منطق استعماري يربط الإيمان بالتبعية السياسية، وهو ما أثبت التاريخ فشله، إذ استقلت الدول الإسلامية وحافظت على هويتها مع السعي للتقدم العلمي.

النتائج

المستشرق هربرت يخلط بين الحقائق التاريخية والتأويلات الاستشراقية، الاستشراق التقليدي "الذي يعترف بالوقائع التاريخية لكنه يغلفها بتفسيرات نفسية ومادية سلبية.

هذا النص لا يهدف للبحث عن الحقيقة بقدر ما يهدف إلى "شيطنة" المصدر (الوحي) من خلال مستعيناً بأدوات علم النفس البدائي في ذلك العصر. والكاتب يعاني من "مركزية غربية" تجعله غير قادر على استيعاب فكرة النبوة، فيحاول تحويلها إلى "مؤامرة سياسية" أو "نوبة مرضية."

طرح هربرت يمثل ذروة الطرح الاستشراقي "المادي" الذي يحاول تجريد النبوة من قدسيتها وتحويلها إلى مجرد "مشروع سياسي" ناجح.

الكاتب يغفل الحقائق التاريخية الموثقة ويستبدلها بتفسيرات نفسية افتراضية لا تصمد أمام النقد العلمي.

هذا النص الذي عرضته يمثل نموذجاً متكرراً للكتابات الاستشراقية والتنصيرية التي شاعت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي كتابات غالباً ما كانت تفتقر إلى الموضوعية العلمية، وتعتمد على خلط الحقائق بالأساطير، وتغليفها برؤية استعمارية ترى في الغرب والمسيحية "المخلص" الوحيد للشرق.

النص يحاول أن يفسر "المعجزة التاريخية" للإسلام بتبسيطها إلى "ذكاء سياسي" أو "جشع مادي". لكنه يعجز عن تفسير:

لماذا ظل أتباعه مخلصين له حتى الموت بعد وفاته؟

ولماذا انتشر هذا الدين في أصقاع الأرض دون وجود شخصه ﷺ؟

السر يكمن في أنهم لم يتبعوا "قائداً لجيش من اللصوص"، بل اتبعوا نبياً أحدث ثورة أخلاقية وروحية غيرت وجه التاريخ.

رغم أن الكاتب يحاول الاحتماء بأسماء ثقيلة مثل (سبرينجر وموير)، إلا أن أسلوبه يكشف بالفعل عن "**عدم تمرس أكاديمي**"، ويمكننا إثبات ذلك من خلال ثلاث سقطات منهجية وقع فيها:

1. الاستشهاد بـ "أشباح" نصوص (السقوط في التوثيق)

أكبر دليل على عدم التمرس هو نسبته مقولة للإمام الشافعي تبيح "المبالغة في تمجيد النبي". بالنسبة لأي باحث مبتدئ في علوم الإسلام، يعلم أن الشافعي هو "إمام الأصول" الذي قامت شهرته على محاربة الروايات الضعيفة ووضع شروط قاسية لقبول الخبر.

2. التناقض المنطقي (المغالطة المنطقية)

الكاتب يقع في فخ التناقض؛ فهو من جهة يصف النبي بـ "العبقرية المذهلة" والقدرة على بناء نظام سياسي وقانوني عالمي، ومن جهة أخرى يصف أقواله وأفعاله بأنها "سخيفة" أو "أحلام."

3. الخلط بين "الأدب الشعبي" و"العلم التوثيقي"

الكاتب يعامل "قصص القصاصين" التي قد تحتوي على مبالغات (والتي نقدها علماء المسلمين أنفسهم في كتب "الموضوعات") وكأنها هي "الدين الرسمي" أو "التقاليد المعتمدة، فهو لا يفرق بين "**المتن المعتمد** "وبين "**الهوامش الشعبية** ."هذا يشبه باحثاً يحاول نقد "الفيزياء" من خلال قراءة "رواية خيال علمي"، وهو خطأ لا يقع فيه باحث متمرس.

وتمييز هربرت بثلاث ميزات:

التحشيد التبشيري والولاء الإمبراطوري.

الاقتباس المبتور، والمغالطات المنطقية، ونسبة أقوال زائفة للأئمة.

الجهل بروح العقيدة الإسلامية ومصادرها الأصلية

هل كان "هربزت" مجرد ناقل؟

يبدو أن هربزت لم يكن باحثاً أصيلاً، بل كان "**مجمعاً للنصوص(Compiler)** "؛ أخذ من سبرينجر وموير ما يخدم غرضه التبشيري التحريضي، وصاغه بلغة خطابية عاطفية تؤثر في القارئ غير المختص.

(تجسيد الإله) في الفكر الغربي، حيث يحاول الكاتب إسقاط مشاعر بشرية (كالغيرة، العقم، المكر) على الذات الإلهية في الإسلام، وهي مغالطة معرفية كبرى.

نص الكاتب هو "إنشاء عاطفي" يعتمد على اخترع إلهاً مشوهاً وسماه "إله محمد"، ثم شرع في الهجوم عليه، متجاهلاً النصوص القرآنية الصريحة التي تتحدث عن المحبة، والرحمة، والقرب، والحث على العلم

الكاتب لم يكن يحارب الإسلام، بل كان يحارب صورة مشوهة صنعها هو في خياله ليثبت تفوق معتقده.

والحمد لله رب العالمين